سياحة في النفس

المأمون
دار المأمون للنشر والتوزيع
العبدلي - عمارة جوهرة القدس
تلفاكس: ٤٦٤٥٧٥٧
ص.ب: ٩٢٧٨٠٢ عمان ١١١٩٠ الأردن
E-mail : daralmamoun2005@hotmail.com

الطبعة الأولى

١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٣٩٤٣/ ١١/ ٢٠١٣)

❖ يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

القطامين، يزيد محمد
سياحة في النفس/يزيد محمد القطامين_ عمان: دار المأمون للنشر والتوزيع، ٢٠١٣.
(١٤٨) ص
ر.أ: (٣٩٤٣/ ١١/ ٢٠١٣).

ISBN 978-9957-77-191-1 **(ردمك)**

دار المأمون للنشر والتوزيع
العبدلي - عمارة جوهرة القدس
تلفاكس: ٤٦٤٥٧٥٧
ص.ب: ٩٢٧٨٠٢ عمان ١١١٩٠ الأردن
E-mail : daralmamoun2005@hotmail.com

سياحة في النفس

بقلم:

يزيد محمد القطامين

قدم له وعلّق عليه :

د . أحمد عطية السعودي



2 0 1 3



دار المأمون للنشر والتوزيع



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم: د. أحمد عطية السّعودي

لشدّ ما انقبضَتْ نفسي، يومَ ترحّلت عن دُنيا الناس كوكبةٌ من سَدَنة اليَراع، وحمَلة الأريج الذين طواهم الرّدى في سنين متقاربة قبيل أن تغرب شمسُ القرن العشرين، فتتابع دَويُّ نَعْيهم: الشاعر الجواهري، والأديب علي الطنطاوي، والعلامة أبي الحسن الندوي، والشاعر نزار قباني، وغيرهم ممّن انتظم في قلائد الجُمان.

يوم ذاك تذكّرت كلمة الرّشيد، حين تُوفّي بين يديه اللغوي الكبير الكسائي، والفقيه الجليل محمد بن الحسن الشيباني، فصلّى عليهما، وشهد دفنهما، وقال: اليوم دفنتُ الفقه والعربية!

تذكّرتُ ذلك، وأسدلتُ ستار الأسى؛ إذ لا معنى للعيش في خربة تضجّ بالبغاث، وقد ذهب أهلُها الذين يُعاش في أكناف أدبهم، وظلال إبداعهم، وقلت: هيهاتَ يجودُ الزّمان بتلاميذ لهم، ولكنّ الزّمان جاد؛ فما مرّ عقد على رحيل أولئك الكبار حتى استبشرتْ نفسي بمولد مواهب يانعة في أمصار العروبة، انبجس منها ماء عذْب فُرات!

وشُذور من ذلك النُّضار هذا الماثل بين يديك أيّها القارئ الكريم، غير أنّه سُكب في كلمات وجُمل تذكّر بصنيع العقّاد والرافعي، ونسيج الدكاترة زكي مبارك، وتطريز أمير البيان شكيب أرسلان، مع كثافة التناص، وإشباع في الارتشاح، والاستغراق الحكائي!

وهو إذ يسيحُ في النفس، نوازعها ومنازعها، تواتيه الكلمة، فيذهب بها إلى فجاج عميقة؛ فتُرى تارة جليةً مأنوسة، وتُرى آونةً جامحة مُلتبسة!

ولي رجاء ألّا يتوهّم القارئ الكريم، أنّ صاحب هذا السّفر شيخٌ أسنّ وعافس الحياة، وذاق عسليتها؛ لِما يرى من حذق في استجلاء الحكمة، والعزف على أوتار الذكرى، وتقليب الكَلِم على الكَلْم!

فالحقّ أن صاحب هذا السّفر هو فتى وَريق لَمّا يبلغ السادسة عشرة، غير أنّه جرى في مضمار جرى فيه "الشّاب الظريف" في العصر المملوكي، و"أبو القاسم الشّابي" في العصر الحديث!

أسأل الله تعالى أن يجعله قرّة عين لوالديه ولأحبته ولبلده، ويهبه النُّجح والرّشاد؛ ليكون قلمُه فماً، وفؤاداً خافقاً، ويداً، ولكي يزيدَ في الإبداع "يزيد"!.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

إن قلبي ليفرُق عندما أرى نبعاً للذكريات يتكدر بأمزجة وقلوب أرغمتها الأقدار على علّة التكدير حتى لو أن وظيفتها حسنة فوق سيئة . وما أشد عليه حينما ينظر إلى تلك القلوب فإذ بها أوعية الذكريات ، وبين أناتها وزفراتها أصواتها المنبعثة من الماضي كأنه صوت صائح : ألا هلموا ، وفي نبضاتها التي تُنبيك عن قلب برّحت به الآلام حتى غدى شلوا تتقاذفه الهموم حينا بعد حين ، ترى فلسفة الذكريات بأهوائها وشكاتها . ألا ما أرحب الأرض عن يمين وشمال لولا وصال القلب أضيق منها عندما ترى صورا من القدم رسمتها يد الدّهر عليه وهي تمجّ من النور علّه يشفي بعضا مما ألمّ به ، وتنزع عليه من أسمال الرحمة والألفة ما جدواه في بسط رجاء القلب بعد انقطاع . ولولا صراط الحُلم بين الآن والماضي أحد من السيف لما احتالت الذكريات في أن تسير حبوا كبوا ، وإنما تقدم كسيل من ماء القمر يرذّ على حنايا القلوب نضخا كرشاشٍ من العطر سحرا ... ولولا عتمة من شمس كانت سراجا عن زيت كان أرضا لما أُنير بذلك القلب المهلهل تريد أن تقفو أثرا للرحمة فلا تجد ، وترى إلى الدم الذي هو بعض من الذكريات يميد بذلك القلب صعودا مع النشيج ، وسفا مع الدموع ! ..

ليس ما يمليه عليك عقلك ذكرى وإنما ما يساوره لك قلبك ؛ فأنت ترى في عقلك معنى من الإلحاد في زيف من اليقين ، ولكنك تنظر في قلبك طودا من الإيمان في بعض من الألم ، وإني أخاف على قلب من عقل !. وليس في خوفي شيء من ترك الأمل ولكن من سوء تدبير العقول للقلوب .. آهٍ من أذكى فيّ نار الذكريات وحنينها ؟ ومن أضرم في نفسي بأنّ حتما سأخلص لها؟ سأسأل سؤالا مُبهما لا يُجيب عليه إلا قلب بذكرياته في شكل من الشوق دمعة على هذه العين : من ذا صاحب الذكرى ههنا ؟! وسأترك السؤال للمجيب وأترك معه أملي في العظة وأنيخ بناصية قلبي هنا إلى موطن الذكريات، بل إلى حقيقة الذكريات ، بل إلى أشواق الذكريات !

ما أقسى العقول على القلوب حينما لا تصيب من الذكريات إلا ما فيه أجل القلوب التي تكاد تهوي من سماء كونية ثم من سماء دنيوية . في كل امرئ من الناس شيء من الذكريات ، ولكنها إنما تكون مخبوءة وراء طور من العناد والعتو لا يستسيغ مفتاحا إلا من الحنين والشوق ، وبعضها بلغ منها التيه إلى أن تكون قفلا من آجال السماء لا تريد مفتاحا إلا من رحمة الله ، ورأيتها تتململ بداخل سورٍ من العزم في سور من الكبرياء . ما أشد كبرياء الذكريات أيها الناسيي ، ستبصر منْ وراءها حياة كانت حياتك في مرءً ومسمع ، أم استنفذت من طولٍ في نسيان حياتك الأولى ، إذا لا جرم تأنف من الثانية ! . إن الزهور لا تحمل من معانيها سوى اللون أو الرائحة ،

وإنما معناها من بذرة كانت من تراب ومصيرها إلى تراب ، تمتد من آخر فرع إلى آخر جذر، فترى صورا من معاناة الطبيعة في اشتقاق بعض من جمالها في بعض من قبحها ، وكذلك معاناة الجذر في إخراج سوق ، ومعاناة من السوق في استخراج صفحة من صفحات بؤس الزهور متوّجة بتلك اللوحة من رسم الطبيعة بعد جهدٍ أمضّها ومعجزة خفقتها ! وإنما ذلك المثل مثل الذكريات ، فإنها معضلة من المسألة الكبرى في شيء من الحلول الصغرى ، ولا تكون سوى فلتة من فلتات الماضي سكينة عقل من عقول الحاضر . إن ذلك ما يمثل لك حينما يذكر امرؤ شيئا من الذكريات وأنت لا تعلم سوى أسبابها ولا تستطيع إدراك فحواها ! ..

إن قلبك لم يُحكم صنعة الذكريات فلا ريب من أنك تألفها ، ذلك شيء طُويت صفحته على غيبٍ من علم الله ! ولا تظنن أن بعضا من وساوس قلبك أنها ذكريات ، فإنك لست تأتلف من معانيها إلا عندما تسمع خفقة قلب الحمام من هديله ، ورقّة روح الماء مع سريانه ، وزفرة من أنفاس الشجر حينما تبدو لك حافية مصقولة ! ومتى ما أحكمت قبضة قلبك في شيء من حزم عقلك فعندها انتظر وستأتي لك سحب من الغمام الوردي إنما تسير على عين الله وقدرته .. !

من الفلسفة شيء من الإلحاد ، ومن الإلحاد أشياء من الفلسفة ، ولكن من القلب الذي عرف حقيقة الفلسفة أنماط من الإيمان . إن القلوب لتثب من أوجارها عندما تلمح شيئا مما تحبه ، وتنزح في أركانها كلما شاهدت خُرقا تكرهه ، وكلا القلبين إنما طبيعة الأقدار وشواهدها ، وهم قلوب الأقدار لعقول الناس ، حتى إذا ما نزغ به نزغ استنفرت البشرية من الحياة وزهدت في الدنيا وابتذلتها ، وأنزلت كل شيء من قلب القدر إلى عقولها ، حتى إذا تساوت كان ذلك عدل الحياة وإنصافها الذي تبلغ به حدا من معاني الكمال . ولعمري إن الذكريات لصنيعة أقدار ليست كأقدار البشر ، وإنما تلك الأقدار التي تستنفذ من لحظة الإنسان حولا من الطبيعة ، ومن خفقة القلب حَزبا من عاصفة ، ومن هدرة من ماء العين سيلا من ماء السماء ! وإني مع ذلك لأجد من الذكريات شيئا من الألم لو لم يكن منها لما كان من غيرها وإنما من حرثها ! وإن ذلك الألم ليبصرني ضرب سوط في أثر من جهنم يكاد في حدته يلذع لذعها ويميّز ميزها ، وإن من ذلك الألم لآلام فيها من الأدواء ما فيها من العلاج ، وأي علاج ذلك الذي يقي من سوط الذكريات ؟! وعندما تشتد حدته فذلك أهون من حدته في الدموع لو لم يكن لها إلا المعنى لا الأصل !

وإن العقول لتدور حول مكنون الحكمة دوما فلا تصل إلا من طرق كادت أن تُلوى على بعضها ، وكأن فلك الكون استحال إلى فلكٍ من الحياة بأرضها ، فمن كلّ قمر هناك قلب ، ومن كل كوكب هناك عقل ، ومن كلّ نجمٍ هناك حكمة ! آهٍ لو تعلمون أن مثار الحكمة في تلك الذكريات ، لعمتم حولها ولو أغرَقتكم لجّة بحرها ، ولأبصرتم في كل ومضة خبر تُبدي شهابا يقطع السماء ، ولو رأيت حزنا لثقفت نيزكا خرج من فرن المجرة يريد أن يكوي المجرة نفسها ... وإن في كل ابتسامة من الشمس للقمر لنورا

من الاثنين للأرض ، وحتى إذا ما الكوكب أراد استنفاذ النور أهدره في يومه ثم يعقد نفسه وينطوي عليها كأنه لا يريد نورا بعد الذي قد استنفذه !

إن في جنة من جنان الله على الأرض لا تريد إلا قلبا استفاض فيه الماضي فكأنه صار حادثه في الحاضر رسولا عنه ، فصارت جنة تحتمل زمانين برمّتهما ويعطيك شكل تلك الشجرة إن أردتها قبل ألف سنة وبعد ألف سنة كما هي ، ويُبصرك بمنظر ذلك العصفور الذي في روحه قيثارة الجنة السماوية يوقّع عليها ، فتلتفّ عليه أوتارها وتشتبك من حوله أصواتها فتصبح كقيثارة من الجنة الأرضية أصواتها من الجنة السماوية ، أو أن عازفها من هناك وخياله من هنا ، وصوته هو صوته أينما كان هناك، أو هناك بشكلٍ كامل هنا! ولو أن الله جعل لكلّ محزون نصيبا من الذكريات لجُعل الحزن مرغوما بها ، فلا يريدها إذن بعد ذلك أحد ؛ لأنها إنما تغرف من بحرها إلى بحره ما شأنه أن ينقص بحرها بنقص بحره ! ..

إذا أطلت فكرك في إدراك مفهوم الذكريات فستنهمل عليك مئات الكلمات في آلاف من الحروف ، ولكن اضرب بعضها ببعض وأدرْ بعضها على بعض واسمع مليا هناك إلى أنين قلبك أو إلى رعشة نفسك فثمّة ذكريات عليك أن تتذكرها ... إنك إن تحدثت عن الأرض تقول وما عليها ، وإن تحدثت عن السماء تقول وما فيها . وإنك ترى سماء فوقك محوّمة تحتمل آلاف النجوم بكواكبها وأقمارها ، ولكنها لا شيء إذا ما قورنت بصخرة وما عليها من تراب . وتنظر في الأرض آلاف الأشجار في آلافٍ من البشر ، ولكنها لا تعدل شعاع نجم أو ندب شهاب . فإنما أرضنا سماء للنجوم وأرض النجوم سماء لنا ، وكلا الأرضين في كلتا السماوين إنما مثل صخرة أطبقت فوق نجم فتلك تربض بها وهذا ينفث عنها ، وفيهما من سوء اللوعة ما في الشمس من حرارة تجيش. ألا ما أرحم بعضهما على بعض وهما رتقا ، فلا مصلحة في فتقهما !

تنزل الذكريات من فلسفتها إلى مفهومها فتتخبط معانٍ كنت أشيدها ، وتتضارب أمثلة كنت ضربتها ، وما إخال إلا أن في الفلسفة شيئا من المفهوم ، ولكنّ علة ذلك المفهوم في أنه مبهم لا تجد إليه سبيلا إلى من الفلسفة التي هي أكثر إبهاما . وتجد مثل ذلك إذا لمست عقلك فوجدته طريقا لفهم الكون على رحابته واحتواء الأرض وما عليها ، ولكنّ ذلك لا يصلح إلا إذا صلح العقل واستبان مشكِلُه واستعظم دقيقه ، فهناك يعرف أن الكون بوسعه يوجد من هو أوسع منه ،وكلّ شيء زيادة عليه بمقدار ما يصلح من ذلك العقل ! .

أتينا إلى هذه الدنيا في مركب وسنغادرها في مركب وشتان ما بينهما ، فإنما مركب الحياة صُنع من قديم من عمر الأرض فما زال حتى تخاله صنع توّا ، وأما مركب الموت إنما صُنع من أشجان ترخّصت لنا العلل سانحة بذات ضلوع من القلب في شيء من وخز الألم ، فكان منه ذلك المركب لا يكاد ينجو بأثر شيء . وما بين المركبين لمسيرة من الجهد أو الخمول ، أو من الإخلاص أو الخيانة فتلك هي الأيام ..

إن الذكريات من الأيام كالعنوان من الكتاب ، يكون حينا صائبا ويكون أحيانا لعنة تأتي منه إلى ذلك الذي كتبه ، فإما محقٌّ في العنوان أو أنه أراد به زيفا وبعدا من الإنصاف . وأحيانا يكون الكتاب لعنة على العنوان فتنقلب حينها ليست فقط على الذي كتبه ، وإنما على الذين يقرؤون ! ...

بين الفلسفة والمفهوم كما بين فلك الحياة يدور فوقنا ونحن بعض منه ، وبين هذه الساعة التي هي إحدى عقارب الكون . فأما استنساخ الأصل من ساعة الحياة إلى ساعة الممات فتلك هي الذكريات ، وينتقل الفلك بجميع أركانه وأقماره ومداراته عقارب وأرقام . فما لنا من هذه الساعة وعندنا ساعة الكون التي تجري بها مقادير الخلق ، أم أن الذكريات بين ساعة السماء متوقفة وإلى ساعة الخلق هائمة ؟! وإذا مصيبة الوقت في كلتا الساعتين هي تلك الأيام التي تبعد ما بينهما وتُزجي لكل ميقات أمل ، ألا فخار الله لنا في هذه الساعة إلى تلك الساعة ما بين هذه الدنيا إلى تلك الجنة!

إني لا أعبأ بشيء عبئي على ذلك القلب من تلك الأيام ، فإنه معنى كان مسطورا قبل في صحيفة الذكريات . وإن الذكريات ليست رهينة ساعة حدوثها ولا وقت حدوثها ، فهي مكتوبة قبل أمد عليك أنت أيها القلب طويل ، ولكنه على العقل قصير! .. إن الطيور الجميلة لتحمل في صدورها آلاما فلا تبقى إلا طيورا ، فمنذ أن تخلق وحوازب القضاء تكاد تظفر بها ، ثم لا تلفي إلا أن تجد تركا وهجرا ، وبعد فإما صائد يرشقها ، أو بهائم تقتلها . فتحبس إما في قفص الموت أو في قفص شقيق الموت ، وما كان ريشه الجميل إلا نقمة عليه وحسرة ، فلو أنه كان كالغراب لما تحامل أحد على صيده بل ينفر منه ! أفلا ترى أن القبح أحيانا أجدى على صاحبه من الجمال ؟!

يقولون إن القلب شيء في أربعة أشياء ، ولكني أقول أنه أربعة أشياء في شيء ،وإنما ذلك هو : الشعور والميل واليقين والذكريات .. في كل شيء منها يبرز عالم وحده ، فيه من جمال الصنعة وإحكام القدير ما يثير باقي الأشياء . وإنما انحازت جوانب القلب إلى أربعة لأن قانون الحياة بُني على التفاضل ، فكل شيء من القلب هو روح القلب التي لا يعيش إلا بها ، ومن هنا يتباين فضلها وتتمايز مراميها ، فتارة تأتيك من الرحمة التي هي أوسع الأشياء ، وتارة من البر وأخرى من الإيمان ورابعة من الحنين. وفي كل شيء مفتاح شيء ، وفي شيء مفتاح كل شيء ، لكنها أبواب مؤصدات لا تعرف معها معنى من المسايرة ، و ما إخال إحكام صنعة الله في قلب عبدٍ تتقاذفه الهموم من كل واد ، وتنزوي به العرصات من كل جانب ، وتزورّ به الفتن في كل شيء ؛ إلا أقفال تلك الأبواب ومغاليقها ، فلا تكاد تسيّر أمرا قدّره الله إلا أغلق عليه وحفظ في جنب من جناب القلب .

وإني لأفيء حاملا قلبي إلى هذه الذكريات فأجد منه ويجد مني ونجد كلانا منها ، وفي عين امرئ آخر لا يجد في هذا التهكم شيئا وإنما يراه خلاصة أمر كان يجب أن ينتهي ويمضي بأوعية نفوس علّتها جنس علته . وما أرى شيئا من الحاضر إلا وأبلغ

منه في الماضي ، وما أحكم بين أمرين إلا كان غرم النفس أنها حكمت ، ما أعجب القلب حينما يريد أمرا فيجد قسرا فيحيد من ههنا و ههنا يلتمس طريقا آخر إلى الماضي فلا يجد إلا من الفلسفة ...

نظرت إلى هذه الصفحة البيضاء التي سأملي عليها فإذ بها صفحة من صفحات قلبي امتلأت بالحنين ، وكأن ما أكتبه فيها أقرأه فيه ، وما أنشده إيا ها أسمعه لديه ، وما أجرح به هنا أجد نزفه هناك ... فكان هذا المداد المراق سيول تلك الأشواق التي نفضت بسدول هذا القلب الصغير . آهٍ يا صواعق قلبي وإن فيك من الظلمات ما أدلِجُ به حتى أهوي من أسفل إلى أعلا ، وأتدحرج من عين مع دمع إلى الأرض ، وفيك من الرعد ما تعصف به الخواطر والأفكار فكأنها لعنة على المرء أن يجول بفكره قليلا ، وبرق تراه انقدحت شرارته بلحظ من سحاب مخضل فيه دمع الكون ... فواحدة من ثلاثة وثلاثة في واحدة كانت حجابا رادعا أمام قلب كان نهبا فصار غير مألوف له العيش هنا ، ليس سوى ماضٍ وذكريات أراد أن يأنس بها!

ما تهبط الذكريات في موقع إلا آثرت ذلك الموقع على جنان الأرض ، ولو حطّت في عقلي لقلت : ذاك أنا ، قلبٌ في عقل ! ولو تخطفتني الأقدار بسهم من كنانة الحياة لما عرفت في ذلك مردا لي عن أن استشف منها شيئا إلى تلك الذكريات ! إن ذلك المكان بما يحطّ عليه من الماضي لهو سبب من أسباب الماضي ومقدّراته ، وهي بعض منه لا تقوم إلا بحسن قيامه على سوء رقوده . وما يحبّ الماضي إلا شيئا من الماضي في عقل من الحاضر ما كان إلا لتعطيه حظا كان لزاما على القلوب أن تعترف به ، وإلا فالهلاك لها ... وللماضي أيضا !

يقولون : عذيرك ! فإننا نجد من الماضي ما لو تذكرناه لكأنما عشنا البؤس مرتين في حياتنا لا واحدة وانقضت ، ونرى تلك الذكريات معولا يحطم في أعمارنا على بعضها كلما تأملت قلوبنا ذكرى حزينة كانت مقدرة ثم كان لزاما فعلها ... ولكنّ الشمس إذا تذكرت أنها كانت قدحة ثم شرارة ثم نارا ثم مرجلا ثم نجم الكون ، أكانت تتحامل على نفسها وتُجهد ذاتها فتضرم بعضها وتنزوي بها على خيالات من النور صارت خيالات من الضوء تنبو ، ثم في نبوتها ألف ألف شمعة من شموع أهل الأرض ؟! ولو أن البحر تذكر أنه كان خرقا على شيء من الطين لما تدفقت مياه الأرض بما فيها من مياه السماء ، وهو بأصدافه وألوانه كأنها شيء من عناصر الأرض في عناصر الماء بشكلٍ من معادن السماء الثمينة . كذاك هم إن تذكروا أحزانا كانت محطات لوعة في حياتهم فانقلبت إلى قطار هم فيه سائرون حتى المنتهى ألفوا في قلوبهم ونفوسهم شيئا من عدم قبول أو عدم احتفال ، و الكيِّس إن هو ألم به خاطر من مثل هذا تفتقت من بين قروح عقله مجازات في السياسة وحسن التدبير ، فيجعلها في مركز من الماضي ذهب ولا سبيل لعودته إلا إذا عاوده هو ، ومن ثم في ثقلٍ من عقله يمايز بين أشكال المصيبة وبين آثارها ، فيجد حينها رضا كثيرةُ حكمة وقليلة فلسفة ! ..

لعمري ما جعل الله لهم من الحكمة إلا كما جعل للسديم من وهج الشمس على حرارته في مثلٍ من خمود ذاك ، ما زال يجمع في نفسه على أنه شمس ويؤجج من ثورة في قلبه بحسبٍ من الصخور فيخالها العاطفة الجياشة تتسرب من بين جنبيه أشعة سوداء

لا مقيل لها إلا فضاء رحب يتقمّصها ثم لا تدري بعدها أيهما كان الضوء ثم الظلام. ولعمري ما كانت الشمس إلا سديما ليس كالسدم سوى أنها رأت من ماضيها ما هيأها لأن تكون مصباح الكون وسراجه على أن تكون سديما صلدا يحسب نفسه الكون بشموسه وليس فيه إلا حطمة من نجم أو قذفة بشهاب أو نسف في الفضاء ، ثم بعد هو فتات يروح على نفسه عام وما عادت قطعة على أخرى ! كلاهما بدأ من انفجار وكلاهما مراده إلى انفجار ، فأما الصخرة الهوجاء فحسبت انفجار نفسها ثورة على النجوم ، وأما الشمس ففطنت إلى أن ثورة في نفسها جعلت من انفجارها ضوءا ساطعا صار دهرا عن عمرٍ في مثل يوم عن ساعة مما يعدونهما في سياق الضوء ! ..

لا يكاد ذلك المحزون يخلص من حزن إلا اجتذبه إليه حزن ما كاد به حتى ظن وقع الأول أرفق وأهون ، وما يزال في تدبير منه حتى إذا أفلته ، أفلتته شيئا وما هو أبعد من الأناسي أو من الهامدات ، ويظعن في ذلك فينسلّ إلى وجهٍ من الحمأة لا تبرح تفر من الموت حتى تأتي إليها مطحنة تعدو بأقدام تجري وأسنان تصطك على صوت من الفولاذ، ومضى توقيها من الموت سببا في موتها ، بل لعله ما يلوي باقي الأسباب ويبسطها بين راحتي العقل تصرّف حالة الموت كيف شاءت !

من نحن بدون ذكريات ؟ سوى أنه انقطاع حياة عن فناء ، سوى أنها مثلبة الزمان الكبرى في أن يعيش المرء بلا ماضٍ يقوم بحاضره ، سوى أن القلوب أقفرت من كل خلة كريمة .

إن أصل النفس في ذكرى كانت مكنونة على علم الله في صدر يوم كان ذلك مولده ثم مبدأه ثم منتهاه . ولن يجد ذاك من الماضي إلا قلبا كمثل من قلوب الهائمين على الدهر ترى في صورة أحدهم باطنا ، وترى في باطنه ماضيا ينطق بلسان شحيح ، ذاك مثل من كان الماضي هو همه وعدوه . ويستميل مع كل ميل في أن يخلص منه ويفلت من جسارته وهو ما يزال في ذلك صراع فيه بين ماضٍ وحاضر ، يدير عليه الأسى على ذهاب عمره في اقتتال شيئين لا منفعة في اقتتالهما، وفي نفسه لو أن الله أماله لذات الشر على ذات الخير واجتباه إليها يقطع العمر في الأماني ثم لا يكون بعد إلا أمنية تأخذها الحياة ولا تبسطها إلا إلى القبر !

إنا خُلقنا من طينة كانت نارا ، وقلوبنا من تربة كانت مسكا ، وعقولنا من فلسفة كانت حكمة ، وفي مثل هذه الثلاثة خلقت الذكريات في عوامل من الأرض والجنة

ومعانيهما ، وليس من أقل سماتها سوى أنها تُثبت في ذات المرء أنه ما زال في قلب وعقل ، أو حتى في ضمير ورحمة ! ..

ما من شيء يظفر به الحكيم من هذه الدنيا إلى ذلك الماضي غير هذا القمر في بشاشته ، وتجتمع من حول هالته صور لذكريات كانت قلوبا تعيش على القمر وتنبض من أشعته ، وأعلم أن القمر ما فيه غير رمال وجبال وثقوب ، ولكنها جميعا مظاهر تُضيف من الجمال إلى جماله ! كذلك تجد في القلب من الألم والحيرة والحسرة وشأنها أن تجعله فلقة من قلوب الملائكة ، أو شيئا من لُباب القمر ! ..وفي موضعه ذاك مستقر كأنما علّق من ذوائبه إلى السماء فيتحرك هونا ويقف هونا ، وفي القلب المقيد ما فيه ذاك القمر لا تتسق له الحركة كما يتسق له الجمال . وفي مثل من أذكر على القمر تلك الوضاءة حسبه أنه يريد لقلبه قلبا شفيقا ، أو تريده العين دمعا لؤلؤيا فلا يستطيعه، أو حتى يريده حجرا يرميه في وجه من يحبّ فلا يقدر على شيء من ذلك بل يحبط ويحبط ذلك القمر الذي يريده ، ما كان من جمال القمر أن يريده مثل هذا !

أولا يحسب أن القمر جند من جند الله متى شاء جعله كنفس الشيطان مريد سبيله الغواية، ومتى شاء جعله قلب راهبٍ يستتر من الناس ، ومتى شاء جعله عقل فيلسوف من فلاسفة الدنيا فإذا حكمته مردودة على قلبه فتلك هي الطامة، ومتى شاء جعله في سبيل ميتٍ من أمواته أو عاشقا من عشّاقه أو متألها من أمثاله . وفي مظهر تلك النجوم عاديات على قلب القمر يردن حزبه أو قبضه وهيهات ، فإن فيه نورا ليضيء حسنا حتى تحسب أن مولد النور للكون جميعه لا لنفسه ، فضلا عن أن الكون قدره ليس منه، بل من تلك الشمس التي في ابتسامتها مع ابتسامته نور مستطيل على جميع الخلائق هي في النهار وهو في الليل ! ..

لم يبق شيء من قوام القمر يغطي على ظله ، بل بقيت أمال منوطة بعنق صاحب الذكريات ترجوه أن يرحم هذا القمر ، ولجعل له ذكريات تنسج قمرا غير ذاك بأشعة كأنها حومة في تاريخ الحياة ثم في تاريخ الممات ، فرحماكِ أيتها الذكريات بهذا القمر ، ورحماكِ بهذه القلوب فما عادت تطيق أن تنسى أو أن تتناسى ... !

لكلّ شيء مخايل يُعرف بها تنمّ عن خير أو شر ، وما كانت تلك المخايل في شيء جميل غير تلك الذكريات . فيكفيك من الماضي شيء يستدعي عليك جميع معاني عقلك وقلبك وتمتطي به آثارا وأياما كنت قد عشتها فصارت غبارا حدثا يستنشقه أنف لكي يسعله آخر ...

يكفيك من مخايل القمر تلك الأشعة التي تُذيب بها صخورا من العناد تمهّد بفتاتها طريقا إلى قلبك ، أو ترجم بها خيالات وأوهاما ضاقت بها نفسك . ولله در القمر حينما يريد أن تكون أشعته في يد عبدٍ من عباد الله يمليها متى شاء ويحبسها متى شاء ،

ويقطر منها الهوين لئلا تنفد منه فتكون دما ينصب على دمه فيميد له القلب والعقل والعلم ...!

آهٍ يا محجة الذكريات سلّطي عليّ من نورك وانفحي فيّ من روحك حكمة هي كل المعاني والبيان التي تنضوي تحت لوائك ، وانشري من برد يقينك على لظى من شكي زرافات من البرد علّه يسهل بعضا من الصعب أو يلين شيئا من الحَزَن .. سأترك هذه الكلمات تنطق عن نفسها فإني إلى شغل لبارح ، وسأدع هذا القلم سائرا بين هذه الأوراق التي انتشلت من عمري وأهملت أكثره لتثري الذي بقي منه ، وما بقي غير القليل ! .. فلأدع الشياطين توسوس والملائكة تسبّح والنفس تؤزّ والقلب يتألم وهذه الذكريات تتراقص فوق عقلي تريد مظانا لها من قلبي ، فإما أهلا وإما بعد وداعا .. !

يا ذكريات البين وجدك نافذ	**أنـــا مغرم بتحية فعزاءُ**
ما لي من الدهر الحزين سعادة	**إلا ارتضـاء الذكريات غناء**
جودي بكف بالدموع نقيعة	**تجري بموت في الحياة دهاءُ**
فلتسرعًا يا شوق وجدا إنني *	**صابٍ هنا فالذكريات لواءُ** *
* **ذللت يا ذكرى القلوبَ مطية**	**فبها ارتحلـت فمنكما الأنواء**

يزيد محمد القطامين

الفصل الأول

المهاد

أنت يا ذكريات القلوب قد خبرت أفئدة صلبة صادعة ما تلبث الحوادث والخطوب تلوح عليها ثم لا تزال نضيخة بالصبر والجلد ، وما إن تخطري على أحدها تكوني كما هذا النسيم ، في ذاته حياة لمن أراد الحياة ، وفي بعضه موت لمن خشي الموت ، فإنه يمرّ على جميع الأرض ثم لا يكون إلا ربيعا مزهرا ، ولكنّه ما ركز على قبضة من الرماد إلا كان قدحة تنفجر عن نار عظيمة ..! بل لقد يجتمع في قلب من قلوب الناس واحد فيه الماضي والحاضر والمستقبل ، وترى بين ثناياه أسبابها في نزر من معنى هذا القلب ، ثم لا تكون في نفسه إلا قلب صغير نابت غض ، جمع الله في يده تاريخا مرسلا ، وعمرا ضافيا فأرسلها في نفخة الروح حتى تعلّقت بأنشاب دنياه فله هذه الذكريات وتاريخها، ولنا صغير فيه الدهر والحياة والقلب جميعا !..

إن هذه الذكريات متى ما أسرجت بنور منها على ذلك القلب الصغير فلن تجد له دمعا من عين أو حزنا من قلب ، أو جنونا من عقل ، ولكنك تجد فيه شيئا أشبه بالذي يذرع الجبل وسفحه في حطب يبغيه ، ثم لا يعود بعدها إلا حطب يمشي ومن فوقه مثله هو الذي يحيا ! .. وما الذكريات في قلب ذلك الصغير إلا قلب صغير في ذكرى في قلب تاريخ تأبى إن جرت معه أن تكون سكينا يفري به ، وفي قلبه لحظ يتهدّل منسلّا ، ولربما وجد القلب من ذلك أشد مما يجده جسده ، فإن القلوب متى ما أردت منها فلن تعطيك إلا بعلم ، فما لم تعلم فلا تسألها عن معنى ذكرى ولا تسأل الذكرى عن قلب ذلك الصغير فإنه مكلوم بأرزاء الدهر ونوائبه قبلات على خده الأيمن فلطمة على خدّه الأيسر ، أو ضحكة عن سنة في عمر طويل من الغضب ..! ماذا يكون في نفس ذلك الصغير من الحياة ، أيكون في عقله كعقول أهل النحو وأشباههم ، يقضون العمر في تحديد مصطلح وتجويده ليخطأه آخر في لحظة ، ألا إنما لثغة من لسانه فإنه قد حوى النحو بأهله وقواعده ..! أو في مثل أهل الفلسفة في تعليل الكون والحياة والعقل ، وإذا ما أراد أن ينزل كل شيء في موضعه أتى عليه بلجام منطقه فإذا الشمس عنده إبريز متوهّج ، وإذا القمر نسيج من حرير في مغزل النور ، وإذا الحياة جثة ولكنها جثة في الأرض ، وفي كل شيء ذائع في نفسه لا يجيء إلا بذكره من نفسه هو . ألا فاسأل ذلك الصغير ما الشمس والقمر والحياة ، فإن أغض الطرف فاعلم بأن عينيه ذلك الجواب الذي تريد ! ..

إن ذلك الصغير لقلم من أقلام الذكريات يسجّل ما كان من حياته في شفة من شفتيه ، حتى إذا ابتهج وجهه ورأيت أحلاما ما تُريد إلا أن تكون بين عينيك أو بين جنبيك لوعة تنقذها من قلب ، بل حتى نور في قلب من عقل ونور في عقل من

قلبك...! فخذ ما شئت ودع ما شئت ، وقل فيه المقالة التي تُريد فإنه في كفن أبيض يتدحرج ويجثم وفي جنانه إشارة إلى قبره من قلب قد خرج منه ، ومن ذا يكون غير قلب أمه من ذا ؟! .. ما أحسب حين وُلد إلا استوفى عمرا افتتن به الذكريات فخرج منه ما يطلب ، وما تطلّقت فوق جبينه سبحات النور إلا وهو في نور من نفسه يشعّ ، وفي لحظة يبكي فيها الصغار تجده يضحك ، ولكنه ضحك ببكاء له دموع ، أرأيت قط ابتسامة لها وقع من الدموع ؟ فذاك من الصغير بكاء على نار من الشوق في قلبه لذكرى تمرّ على هذه الدنيا ، فإن على مهده لها لوح يقيّد أراجيز الحياة وسعادتها .. فحسبك يا ذا القلب قلبا كقلب ذلك الصغير ، بل حسبك نفسا مثل نفسه ألفيت منها حسنا في كل روضة تراها ، بل حسبك ذكرى منه تضعها حينما تريد نافذة لك إلى الماضي فإنها تقودك إلى نفسه ، فإلى قلبه فإلى ذلك الماضي..!

ما يكون في أجهش ينزف أو ضرس حكيم يرنو ، أو بصيرة نافذة تجلو إلا ولها من قلب ذلك الصغير الذي استحدث به التاريخ كتابا ، ترى على أوله " من هاهنا " ثم تفتح وجها فذا وجهك ، ثم تقرأ سطرا فذاك عمرك ، فتبصر نقطة فتلك ... فتلك نهاية أحلامك ..! أيزعم رجل عرف التاريخ بأيامه وساعاته ، وجمع فيها من سنيّ عمره فذاك عمر ثان ، ونضبت قواه في استظهار حادثة جرت في يوم من ساعة في مكان من هذا العالم القديم ، أيزعم ذلك الرجل أنه أجدر بالتاريخ الذي يعلمه من تاريخ ذلك الصغير ، بل لعله في عين من أنواع ذلك التاريخ ، فالنوى عند ذلك الرجل محراب من الورق شطر أقلام من التدوين ، ولكنه في عين ذلك الصغير صومعة من الحداق في أوتاد من الأهداب ! .. اقرأ في عالم التاريخ إن شئت وقعة ولكنها عند ذلك الصغير نظرة ، واسمع إن شئت كلاما ولكنها في نفسه ضحكة ترى فيها منطقا لقلبه وعلما ، بل املأ التاريخ بعالمه في إناء وصُبّ نقيعه في قلبك فلن تجد ما تجد إن أنت انحنيت بأصبعك إلى قلب الصغير ، أوّاه ! لقد جمعت تاريخا في أربعة فصول : تاريخ نفسه وتاريخ عقله وتاريخ عينيه ، وتاريخ بكائه فإنه لا يبكي كبكائك ولكنه كبكاء الطبيعة على نفس أبهم ما يطيق إلا خلاصا من قانون الحياة الذي فرض عليه موتا ، ثم حياة ثم ترابا ! .. وكنور من وجهك عبوسا من وجهه فكيف بالبكاء؟ ... سلْ قلما فإنه هو الذي يجيبك ! بل لعل سيرة هي التي تحدثك عن نكبة أو مصيبة من مصائب الألم في أسعد أوقاتها .. فلن تجد أفضل من ذلك مرشدا لاستفتاء بكاء ذلك الصغير!.. بل لا عليك في حياة من حياتك ، اجعل الليل خلف ظهرك والنهار قُبالتك، واجعل ذلك الصغير في رأسك صورة كما هو في مهده ، فإنك ترى اسما محفوظا في قُبلة مرسومة فذاك بكاء الصغير ...!

إذا أردت في تعليلك نفس ذلك الصغير وقلبه فلا تبتدأ بقولك : قلبٌ ينبض ونفس مشبوبة ! لقد أخطأت إذا في جوابك كما قد أخطأت في سؤالك، لا تسأل عن ذلك الصغير بمنْ ؟ بل اسأل عنه بكيف ؟ فإنه لا يربيك على قلبه إلا وقد سلب منك كل شي ، وما أنت بمجلسه على قلبك إلا أعطاك كل شيء ، فلن تحتاج لتنظير وتعليل ، فقط

ضع نقطة في جنب قولك : إن في ذلك الصغير ، صغير ذلك ! ... وستعرف بل ستعقل بل ستؤمن بصغر أنت تراه هكذا في شكله ، ولكن ستشعر به د هرا ينطق فيك بلسان هو حدّ سيفه وبيان هو مذهب يراعه ، فلا تخف إذا رأيت من عينيك دما ينزف، فإنما هو دم ذلك الصغير في بعض من دموعك ..!

فلتحثوا رمادا من الأرض على شجرة من تلك الجنة ، فإنّ في هذا الرماد بعض من النار الذي نبت منها ، وآخر من الطين الذي جاء منه ، وفي تلك الشجرة غرس من تربة المسك و شكل من خشب فيه عمر ثم حياة بعدها موت ، فستنظر فيهما اجتماع مواد واختلاطها ، حتى أنك ترى في تلك الشجرة دخانا يصعد فلا تقل دخانا ، ولكن قلْ عبير الجنة ! وترى في ذلك الرماد اخضرارا فلا تسميه جنة ، ولكن قلْ دمغة من النار لها وهج أخضر كوهج البساط من تلك الشجرة ، بل من تلك الجنة !..

لا تقسْ على عقل العصفور تغريدا وحسب ، بل قسْ عليه حياة في نغم من أنغام الطبيعة ، ولا ينبو منك عقلك وتُجري على ثعبان معنى السم ، فإنه خير متى ما أردت بصاحبه خيرا ، بل لا تعِ على نفسك أن تغلو في البركان فتحسبه نارا تأكل وتدمر وتزجر ، فلولاه لما كانتَ طينة منها خُلقت ، وكل ذلك مردّه إلى تلك اليد التي خلقت في الكائنات لكل واحد ضربة فيه نقيضها، وطعنة عنده شفاءها .. كذاك لا تحسب الصغير في عقله تاريخا وفي قلبه ذكرى ، بل اعقله لسانا محدثا ودمعة تتكلم ..!

انظر لذلك المهد في قلبك فإن له منزلا ينتظر منك حنوّا وانعطافا يا ذا القلب المرهف ! .. وانظر إلى الصغير فيه ، فلن تره في قلبك فقط ، لعمري سيجمع عليك نفسك وعقلك وقلبك وعينيك ، ثم لا يكون منه إلا إرخاءها فإذا أنت بفصل وبعضك قد هوى في قرارة الذكريات قد انقضى ومضى .. فاقرأ ساعتئذ على لوحة المهاد كُتب عليها : يا قلبا نابضا ، أصبحت نبضا يتقلّب في هنا إلى موتك وهنا إلى ذكرياتك ، فلن تكون في شيء فقد حرت وحار عمرك ، ونأخذك في تاريخنا متى نشاء، وفي نفسك وعقلك وعينك إن أردن تطلعا لك فذاك وما لهنّ ، ولكن لا سبيل إلى أخذه أخرى ..! يا لهف قلبي إذا هفا لذلك المهد الذي اجتمعت فيه أصلاب الأرض وأتراب السماء ، ترى في كل انحناءة منها عالما يدور فيه النسيم المرمّد يغدو ويخطر بين جنباته ، أليس ذلك هو مهد الصغير ؟! بلى ، كذلك مهده في صورة طُبعت في قلب امرئ فعدّ تلك ذكرياته جميعها بساعاتها وأيامها ! .. لا أريد من ذلك الصغير إلا نومة على صدر مهده أترنّح كأني بين الأرض والسّماء ، أطرق أبوابها متى شئت وأُقفل منها ما شئت ، ثم في علم الله ليكون هذا القلب في ذلك المهد مع ذلك الصغير ذكرى عبرت على الأرض ومضت في السماء فكانت أرضها شوق .. وسماؤها حنين وألم ، فلربّما مردي لدهر فيه شوق وحنين ، أو لذلك الصغير أناغيه مع مهده أهزّه ..!

صفْ ما شئت من أعشاش الطيور ، وأوجار السباع ، وأيك الحمائم فسوف تجدها من ذلك المهد سواء في الشكل والمرمى ، ولكنك مهما اجتهدت فلن تجد في نفسك مهدا كمهد ذلك الصغير لا تكترث لصاحبه بالا .. إنك لعمري أفّةٌ تريد غرما يأتي عليك

من جميع جوانبك ، أو تريد حنينا من أرضك .. حسبك نظرة منك على ذلك المهد ونظرة من صاحبه إليك ، فستدل من أنت يا منطقا جاهلا يحسب نفسه فيلسوف الحياة وعالم أسرارها ، بل يا سرا فيه جوامع الأرقام والكلمات ثم لا يكون إلى أبسط ما خلق الله من رموز على الأرض ، بل يا أرضا في سماء من الجهد والضياع ، ستدرك نفسك إذا لحظت عينا بعيني ذلك الصغير .. ستدرك !

أرويت أيها القلب من تلك الذكريات أم لا تزال بين جوانحك غصّة تندرج منها نفسك ، فحذار أن تسقط في قلب ذلك الصغير ! .. إنك لو استعطت ستجد نفسك قد سبقتك وهي لا تزال فيك ، وسوف تجد لسانا ينطق عنك ولست بمريده ، وقلب يزيح من وجده لوجد غيرك فتأبى ، وعين تدمع لا لأجل حزنك بل لسعادة غيرك فلا تقبل ، كلّها أيها القلب أعذار لست تريد من وراءها إلا حقيقة كاذبة ، إنك قلب في جوفه مهد بين جوانحه ذلك الصغير ..!

أستطيع لو خيّرتني بين أطوار الأرض في طولها وعرضها بفضاءها وفلاتها أن أجد لك ذرة من قلب ذلك الصغير ؛ فإن القلب يسير عليه قانون من قوانين الإلزام فيها أحكام ممنية لزاما بأن يبحث عن تلك الذرة ويجدها في قلبه من قلبه ، وحسبك منه مرشدا ودليلا عن الأشواق والأنات ! . بل حسبك منه سفينة تحسب ملاذها في إبرة المغناطيس التي تجري على الكون ويجري عليها ، أما إن داهمت في خطر فالزم بهذا البحر فإنه معين القلوب على تجاوزه إلى ذلك الذي يبحث عنه ! .. ثم انظر لنقطة في بيداء تحشرجت الرمال في أجوافها ومن ظاهرها ، فلن يعرف ذلك إلا من النجم دليلا فإنه ما يلبث إلا حطاما في الفضاء إن هو سلم طيلة عمره..

اجعل من قلبك بحرا وبيداء ، ومن دمك الزكي ماء ورملا ، وخلّ فيهما دليلا فسوف تجد في القلوب ما ليس تجده في أرض الله وسمائه !.. إن فيها أوهاما وخيالات وذكريات ليست كالتي عهدت ، ولن ترى فيها أثرا من مثل آثار الذكريات التي نرمي بها ونتولّى بوجهها ! . من يا ترى غير قلوب فيها شيء يسمّى ذكريات ، وذكريات فيها من القلوب أيّا شئت ؟! ..

إن معرفة الخير لا تُأتي مأتاها من أهل الشر ، وفي مصطلح السعادة لن تجدها عند الذين تمطّت بهم الأحزان واستطارت في حياتهم ، ولو بحثت في جنس من أجناس الفقر فمن المسلّم ألا ترى علامة من علامات الغنى ! أو تحسب بعدها أن في قلب من مثل تلك القلوب ما لها ذكريات من ذلك الصغير في مهده الذي حوى التاريخ في خفقة فحنوّ فضحكة ، إذا كان هذا مما يُقاس عليه ، فسلام على عقول ناظرت في خطأ بمفاهيمه فانقلب خطأ مفهوما، أو حتّى شر في جنبه خير آخر ..!

اكظم الغيظ أيها القلب وابك على الذكريات دما ، فلن يجيشك شيء أكثر من تلك الذكريات ، بل لن يسعدك شيء أفضل منها ، فإن في البكاء عليها نبسة من القلب بذلك اللسان يقول فيها في حقّ الصغير : أيا بسمة على الدهر ، قد كنت ضاحكة

بانشراح ما يظن الرائي إليك إلا أنك طرف من أعين الحور حينما ترنو بضفائرها على أهل الأرض بتلك الأهداب من هذه العينين ، بل من هذا الحزن في هذه الدموع ! .. فإنه لا يسعدك شيء من حياة إلا ذكرى ، ولا يسعدك من الذكريات إلا التي تصفو لك ، أما في سواها فاجرر عليه بحبل واربطه على ذلك المهد فتلك ذكراه السعيدة . بل لقد يكون لك في قلب أشد من السوط ، وفي سوط أشد من قلب ، وفي ذكرى طامّة على ذلك القلب الذي ما تهبط بين أوصاله منها فإنها لا تعده إلا بعضا منها لا تقوم بقيامه بل يسعد بصفوها ، وهو في ذكرى من بعض أحلامها وأشكالها أيضا ! ..

لم يبق للمداد أقلام ، ولا للكلمات أوراق ، ولا للمشاعر قلوب ..! قد ذهبت جلّها إلى قلب ذلك الصغير في حضن مهده زرافات من الأشواق والدموع .. إنني ما عرفت في قلب أحدهم ما عرفت من ذلك الصغير في قلبه ... أوّاه وما يكون أولئك الصغار ؟! ، يا حسرة عليه حينما يبكي من ذكرى نفذت لها دموعه ، أو تاريخ ما عاد في وسع عقله أن يتحمّل فهو كعقل العالم، لا ينتظم له من بعد علمه الكامل حرف واحد ، فإذا أتى هدم عليه عقله بعلمه ولم يكن له إلا ذلك الحرف يلوي به لسانه ، ويتمطّق به على جدران فمه ..! ولم يعد في طوقه شوق فقد أخذ حياته ذلك الشوق بل تلك الأشواق ... إن هذا ما تحمله قلوب الصغار ، فيا ليت للخلق قلوبا صغيرة أو بمعنى من قبضة السعادة والدموع والذكريات من قلب ذلك الصغير خاصّة ..!

انتظر أيها القلب رحمة ، وانتظري أيتها العين بسمة ، وانتظر أيها العقل حكمة .! في البيان عن الحياة لا يكون مع المجاز أن نقول : إن الحياة سعيدة ، بل أن نقول : ما أجمل الحياة السعيدة ، لو أن فيها شيئا من الحزن ... ألا وجّه ناحية الصغير وملْ مع هواه ، وأنصت بعدها لأصوات الحكمة التي ستقرع أذنيك ، وإلى المشاعر تدور حول مقلتيك دموعا ولكن .. إيّاك أن تبكي ! فلربما أجزعته فبكى لبكائك ..! وستشعر بدبيب شوق يتهاوى في قلبك على استحياء .. أرجوك أفسح له فإنه جاءك بقدمين يخطو بهما في كل أثر غرس من الحنين ، أو معنى من الذكريات ، ويا لتلك المعاني ..! ولن تفارق عينك عينه إلا وهو في ناحية قلبك يرقد في مهده ، فأرجوك لا تزجره فتحدث أنّة القلوب بفراق ما تحبّ ، ولكن أعطه قيد اللجام وأوري له بالقياد فإنه ... سوف يملأه عليك رحمة وسعادة وحكمة ، وعندها لن تتمنى أن يكون للحزن منها نصيب ..!

لا تنهم أيها القلب فإن ذلك الصغير قد آمن على نفسه خيرا ، فإياك أن يرى منك سوءا فترى منه خيرا ... ولكن أره حسنا ترى منه تاريخا يقيّدك في ذكر حسن ..!



الفصل الثاني

حنين الحمائم

لقد انحسرت عن وجه القمر غشاوة كما ينحسر عن وجه الحسناء حجابها ، فترمي من وراءه بنظرات ملؤهما الدهاء الوديع ، ويُبعث جمال كان مكنونا لا تناله يد ، إلى جمال يناله كل قلب ، بل إلى سحر تُصاب منه كل نفس . أو كما تجلو الأرض عن كنوزها وأثمانها بزلزال يقوم معه كل عرض من هذا التراب ، فتظهر بذلك معجزة من معجزات الأرض حينما تقدّم شيئا من جمالها أو شيئا من ثمينها لذوي التولّه بالذهب والفضة .. وتمضي أشعة القمر كأنها سطوة على أشعة الأرض ، بل كأنها طرق تقود إليه ولكن ليس من السماء ، بل من القلب والنفس والإيمان ، أو كأنها ألسنة واشية تبث نجوى القمر و هو مستتر بتلك الغشاوة يستعبر النجوم ويستدعي بعضا من وهجها أو نارها في تلك الغشاوة كي تهدّلها أو تنسلها فتُظهر لنا ذلك الوجه المستدير من النور وأم الأحلام ، وتترقرق أدمع منه سجينة تلك الخيوط من النور أو تلك الخفقات من القلب لا تريد إلا ظهورا أو استتارا بمعنى من الظهور !

ثم انعقدت من بعد ظلمات من وراءه إلى ظلمات من أمامه ، بآمال لها من ذلك النور التي استحدثت به الطبيعة فنا من فنون الجمال ، أو راجت له كلمة همسها في أذن الأرض سمعها جميع أهل الأرض فأصبحوا يتولون قناديل لأنفسهم سفيرا عن ذلك القمر الذي أضاء لهم ما فوق قلوبهم ، بل وما تحت عقولهم ...

إن معنى الأرض والقمر كحجارة الجذب ، في أصلهما نار من نور ، ونور من نار ، يتجاذبان عند اتفاق الأنوار ويختلفان عند إتلاف النيران ، فإن معنى الاهتياج لديهما واحد ولكن الاختلاف ما هو ذلك الاهتياج ؟ أمن قلب أم من عقل ؟! ... والأرض تمد القمر بثقل شديد والقمر يمد الأرض بنور أشد ، وفي كل ومضة كأنما يقول لها : يا أيتها الأرض ، إني ما علمت من نور غير نوري ، فلا تخالي الشمس تمدني به لأني أنا من أعطيتها روحه ! .. وفي كل سطر من شعاع أعذار بيضاء يحتال بها القمر ، ولكنّ بياضها لن يكون أشد من ظلمة الفضاء ! ..

زالت عنه الغشاوة ولكن بقيت آثارها ، بل بقيت جاثمة لا يستطيع معها دورانا أو هروبا ، وفي نفسه شيء على الفلك الذي هو علمه ، وفي قلبه شيء على الشمس التي هي مركز دورانه بل وقوة جذبه ، فلا يحفل معها أن زالت الغشاوة أو بقيت فكلا الأمرين باءت نتائجهما إلى دمار ، أو دمار بصورة شعاع !

تقول لي نفسي : انظر إلى ذلك القمر المرتجّ ! يدور حول نفسه في فلك من عقله ما إخاله يستمر به حتى تكون نهايته ، أو أنه حاق به قلب أقوى منه فلذلك أنت تراه في شكل ما تدري أذلك قمر أم سراب مضيء ؟! ، وفي نَفَس الفجر لأرواح تريد أن

تخطّف روحه أو أن تُضنيها بوعث يتنكّب به من عُلاه إلى مستقر ردمه ... إلى القبر ! فقلت لها : وانظري إلى ما حول القمر ، ألا تجدين شيئا من الهم ليس من همومنا ، بل كأنه معنى من معاني السعادة في قانون من قوانين الحزن ، وكأنه هناك قلب جريح تمدّه أشعة من نوره بدم عكرٍ من دماء العشاق أو من دماء عشقهم ، ونائية عنه دماء المساجين الذين يحملون كل يوم أقمارا في قلوبهم ، بل مجرة شاهدةً على فلكيٍّ ولكن ليس بزي يمنح حياة ، بل يطرح الحياة ويستشف من الحنين للقمر ، بل إلى نور القمر ! وإن في بعض أسراره لما يُوحي بالحياة الدائمة ، ولكنها حياة في زي موت في قبرٍ من خشاش أرض الجنة تحمله الملائكة فوق أكتافهم ، وما فيه إلا حياة وموت ولكنّ ساء ما بينهما إن كان القمر طريح فراشٍ من عياء ، أو من سكرة الموت !

إن القمر ليجمع من أشلاء النور وبقاياه التي كانت منذ الأزل إلى الأبد ، جمعتها يد لكي تفرقها بعدما ينتهي دوره في الكون فأصبح النور منه نورا من أشلاء مبعثرة قد كانت في نفسها ذلك النور الذي ما كان الصفاء ليكون إلا به . وفي كل جزء من نور جزء من خوف وأجزاء من الرهبة ، فكان منها تلك الدائرة المفرغة على لوحة السماء كلما زدتَ في قطرها زدت في اتساق موتها ؛ لأنها تحمل معه نورا أكثر ، فتتحمل خوفا أكثر ، وليس ذلك من القلم الذي يرسمها بل من لون الورقة التي تُرسم عليها ! فعند حجب بعضها فذاك حجب عنه ، وفي هذا إن القمر لتحبط به أركانه لتقوم عليه، وفي قيامتها لربضة منه على تلك السماء تجعله جيفة لكل الشياطين متى تريد أن تظفر به أو تدعه ...

إن القمر نقطة بيضاء على سطر من الظلام ، تُوحي بانتهاء أجل من السواد ليبدأ أجل من السطوع ، وما هذه النقطة إلا علم لانتهاءٍ في علم لابتداءٍ ، تحجر وراءها عمرا من الفضاء لتتيح مكانا لجو من أشعة الشمس . بل كأنها تلك البقعة البيضاء التي سالت من لوحة الرسام حين انتهى من لوحته ، فظهرت تلك الدائرة مشتتة الأطراف من الصدفة أجمل من اللوحة نفسها ، بل أجمل من ... من الألوان !

وفي معنى القمر ذلك الحضن الذي تهوي إليه الكواكب من كل صوب ، أي تلك الأم التي زاغت عينها طافئة تبحث عن أولادها فإذ بأكوام من النور تحدق فيها وتنتظرها أن ترميهم بنور ، فتلك مظانة كل أم خالها أولادها أنها قمر ! ...

رأيت في شعاع ذلك القمر تخرج من بين فروجه حمائم تزهو وتعدو إلى ذلك الفضاء، ثم تنزل إلى السماء معلّقة كأنها أزهار نرجس على شجرة تعصف بها رياح الحنين مع كل ومضة من شعاع القمر ، وتدور حول كعبتها التي تحجّ إليها في السماء ، أي ذلك القمر ، ثم تعود هابطة إلى الأرض باسطة أجنحتها ترى فوق أحدهما موت القمر ، وعلى الآخر حياتها هي ! وتقبضهما كأنما تتم رسالة منها إلى ذلك القمر أن استعد فإنما نحن رسلك ، وانتظر مدتك فقد حملنا حجتك وسمتك ندمغ

بهما كلّ من قال : آهٍ ما أجمل تلك الشمس ، فإنني أرا ها خمسة أقمار برمتها ... ونحن أولاء أقمار لقلوب على أرض الحياة ، أو أرض الممات ! ..

آه عليك أيتها الحمائم في ز هوّك وجمالك كأنك روح القمر التي كان يتنفس بها النور ، أو مقلتاه اللتان كانتا تنفثان الضياء إلى أهل الأرض ، بل حتى ثغره الضاحك حين يهتاجه حنين واشتياق ... كلما أنظر إلى القمر بسطوعه وضيائه في وسط تلك السماء المظلمة أخاله ثقبا نافذا إلى الجنة يشفّ عن بعض من جمالها . أو أنه مرآة لها فترى من بين أطواره انعكاسا لجمال الجنة في جمال القمر ؛ ليعلمنا كل يوم أن الجنة قريبة منا بل هي بين قلوبنا ، و هذا هو القمر انظروا إليه لتروا ذلك البهاء تنتفض به أواصله ويرتعش له قلبه . وانظر تارة إلى تلك الحمائم الهابطات ، بل إلى أنفاس الجنة تنزل إلينا عبر ذلك الثقب البديع ، وهي تتنهّد كأنما شقّ عليها أن تفارق جنتها وتأتي إلى هذه الدنيا مثار الشقاء .. ولكن لم يزل نفح الجنة تتعطر به قلوبها وتكتحل بجمالها عيونها ، فكأنها لروح هذا الصباح المظلم صباحٌ مشرقٌ ولكن من أين ؟! ...إنه من الجنة !

ولقد ظننت تلك الحمائم في بعض ما ظننت أنها عقدٌ للأكفان جاءت لتنسج لهذا القمر كفنا أبيضا مثل لونه ، بل مثل ابتسامته . وكلما انحلّت عقدة من هذا الكفن طرح القمر عنه همّ الممات واشتغل بهمّ أكثر جدوى في نظره ، ألا و هو همّ كيفية الممات وعلى أيه حالة ستأتي هذه الحمائم بكفنها وتوجره إياه بشدة لا يبقى له فيها بعد ذلك من أثر إلا قمر محنّط تبرز من بين علامات حياته علامات موته ، وكفن بحمائم من الجنة لها عقدٌ لذلك الكفن ، هذا ما ظننت وإن لفي بعض الظن إثما !

أعدت أنظر إلى تلك الحمائم فرأيتهن جميعهن قد انتظمن على دوحٍ كثير الأغصان ملتفّ الورق ، ثم لطارئ غادرن تلك الشجرة وطفقنا عائدات إلى السماء صعودا مع كل زفرة حنين تخرج من آهاتهن التي أسمعها وكأنني دفق قلوبهن أو وخز الألم فيها ، ولكنه ذلك الألم الجميل .. وبصرت بحمامة قد انتبذت وما تزال على تلك الشجرة نائحة جهدَها البعد وأتعبتها السماء ، فكادت أن تلحق بأخواتها فناديتها بصوتٍ عالٍ حتى سمعتني فالتفتت وتوجّهت صوبي في خفة ولباقة . رأيتها كأنني أرى ملكاً حين يسجد في محراب من النور تجدها تسجد في محراب من الحنين ، متمثلا بهيئة هذه الحمامة البيضاء ولكن ليس بياض القمر ، فإن القمر أبيض بمعنى وأصله أسود بما يهتاج داخله ، ولكنُ الحمامة هذه بكاملها إذا رأيتها تنبيك عن شكل تلك الجنة التي أتت منها . أوّاه لو دخلتُ للجنة من ذلك القمر ، ورأيت إلى هذا الجمال الذي أبدع هذا الجمال ، أو إلى تلك المعجزة التي تفتقت منها هذه المعاني من الإعجاز ، أو إلى تلك اليد التي جعلت في كل عضو منها شيئا من النّدّ فهي دائمة أبدا تعبق به وتنفح منه ، بل لو نظرت إلى بعض المعاني لوجد منها الأصل ، ولو نظرت لبعض الأصول لم تجد إلا مشاطئات للفكر عن ذلك المعنى الذي تبحث عنه ، كالقلم الذي يُخرج حفيظته على ورق ، فلو لم تكن مما تنفع أو تُنتفع منه فاغسل الورقة بالماء ثم نقها واحذفها حيث

شئت ولكن بمكان لا لقلم معه أن ستبوء بإثم الكذب والتزييف ... فقلت للحمامة: لم تعودين بعدما جهدك التعب في النزول ؟! ، فردّت : لقد اشتقت لذلك القمر فما عاد بوسعي أن أنتظر ههنا أكثر من ذلك ، فلقد اجتمعت عليّ الهموم من بواديها إلى أواخرها وما استعطت لها جهادا ، فها أنا عائدة من حيث جئت إلى حيث لن أجيء . فقلت : وما حملك على ذلك ؟! فقالت : إني مخلوق أخضع لقانون مسطور تسير عليه الخلائق جميعا ، وأرتسم له علامات لأصحح خطأ كان يمكن أن أرتكبه ، وأنت تنظر الأرض كيف تدور حول الشمس تريد أن تجد ثغرا تعتصم إليه من حرّها ولكن لا تجد ، فليس أطيب من حرّ الشمس إلا قرب الشمس ! ولئن كان دوران الأرض حول نفسها منه ليل ونهار ، فإن دوران قلبي منه حنين وشوق . ولن تجد في قلبي إذا شققت عنه غير جمرٍ متوقّدٍ يسري به دمي فينتفض له بدني من ذلك الحنين ، وإني لأخاف مع هذا البعد أن تكون النهاية فإني لست آمنة على حياتي وأنا ضعيفة القلب منتهرة الفؤاد . ولقد نظرت لأخواتي كيف ذهبت وبقيت أنا وحدي ؛ لقد كنت أُعالج ألما شديدا أجد من آثاره لذعا إن دمعت عيناي ، أو إذا شعرت برعدة تهزني واشتياق يكظم على أنفاسي لذلك القمر الجميل ! الجمال كلّه كأنه بحوزته ، ولن تناله ولن يكون ، ولكن تناله أنت من الدموع . وهنا ولّت وأدبرت على أنفها وطارت إلى السماء تعاند النجوم بأنوارها ، ومازلت أنظرها بعين الحزن حتى رأيتها تدخل من ذلك الثقب إلى الجنة ، فشعّ نور غطى سناه على أنوار النجوم جميعها . فرجعت لنفسي وقلت : إن دموع هذه الحمامة نضخ من رشاش من القمر المعروق ، يتساوى لهيبها وبردها ، فإذا أردتها نورا فبادر بنظرة إليها مسرعة حين خروجها ، فتلك العين بعض من مقلة القمر ، وهذه الأدمع تقطر ثم تترقرق فتتململ داخل حملاق العين تريد خروجا ، ولكن مد القمر أقوى من جذب الأرض فإذا اصطنعتها كأنك لم ترزق بعين دامعة ... ولكن بقلب بكّاءٍ أسيف ! ..

الفصل الثالث

نشيد القلوب

لا أعلم أفي القلوب من طرب كما طرب ذلك النشيد تُصغي له فتحسب روحا نُفخت فيها معجزات أصوات الأحياء ، فأنت ترى هديل الحمام في رقّة ساذجة كلما استطير القلب فرقا من السعادة والبهجة ، وتبصر زفرة من تنهّد الأسد ترعب بها قلبا ثملا قد نزع عليه آفات وسموما فإذ به يستنفر في هيعة ويصول في حومة الأبلق إذا ما انتابه شر ، وترى منه أنينا خاشعا في مقامه أراجيز أبدا في ارتفاع وانخفاض تجتاز السماء حتى باب من أبوابها ، فتصبوا إلى الذي له يستجيب!..

أكان في وتر نفس إنسان تقليب الماضي بساعاته وأيامه ألحانا وأوزانا ؟! أم كان في حسابه نقرة منه على الدهر فيها من غوث المنكوبين وعزاء المساكين ما فيه ذلك النشيد ؟! ألا لا تعذل فقد كان من ذلك النشيد قلبا ينبض بالحياة الدائمة ، ثم حياة إلى وتر ثم وتر إلى الجنة ! ..

حنانيك أيها القلب الندي ما أطمعك ، وإني لأرى فيك اجتماع عذاب من السماء في حزن من الأرض ، بين القاف والباء برق وقصف فتجهش في أركانك فتغدو بها قلبا كأنه خرقة ممسوحة حُذفت في ناحية من رماد فوقه نار ، فهي ما تزال في حر وقرّ حتى تكون الخرقة أديما ثم لا تكون إلا فتاتا تذرو به المذاهب في شدة ، والمنطق والعقل في هون ! أأنت الذي تخفق بدم ؟! فما لي أرى دمك الذي منه أنت جعلت عليه حنقا وهو عليك شنار ، ثم زدت في بغيك بأمر جلل جعلت منه عبدا طيّعا ، إن أنت شئت قذفته حزنا على عين فتدمع ، أو جنونا على عقل فيلحد ، أو ضربة فوق قافية اللسان فيعجز ويعقد على بعضه ، والبعض لسنٌ من أهداب لهيب الشمس ! .. أأنت الذي في جوفك الحياة وفي ظاهرك موتها ، و في داخلك نعيم وفي أطرافه العذاب ، وأرى في لفائف زواياك نقشا بيدٍ على يد هي الجالبة لكل هم وكل حزن ! ..

إنني لأعلم أن في النار التي اشتعل أولها على آخرها ، وجمعت فوق هجيرها لهبا ، وفوق لهبها ألما ، وعند الألم حسرة ، وقبضت من أشلاء جهنم شظية فاطّرحتها في جوفها فإني لا أراها جزءا من سبعين جزءا ، ولكنني أراها سبعين ألم ثم في طفيفها ! .. إني لأعلم أن هذه النار لا تجهل منك شيئا لا يرى ولا يسمع ولا يشعر ، ولكن تجعلك قلبا كمثل طائر البرقش ، في ريشه الأغبر والأحمر والأسود ، وأنت فيك من اللهيب : الحزين والمتألم والمتشوّق!..

وأعلم أنك تحمل في يقينك حلما تريده أملا ، ثم ذاك مصيره إلى ضرب أمنيات كان القلب منها أشبه ما يكون بطود نمل يجهد في استجماع مادة الحياة ويضنيها في ذلك ، فيحسب حنطيتين أنهما المقوّمان لمعوجّه المقيمان لأوده ، ثم لا تكون واحدته بحجم الحنطة ولكن بحجم جهد زهيد غير مأبوه له في جنب ذلك القلب ، إنما هي صفعة من يد الدهر وإذا النملة فتات تكون رذاذا أو بعض نسيم متعكر ... لو أنك أطرقت مصغيا إلى كلامه لثقفت العجب ، ستنصت له إذ يقول : سلامٌ على الدنيا ، فما بقي فتات نبغي به دمعا وجنونا وطمسا على الفؤاد والمنطق ، وما بقي هاهنا من بعد نزع الروح إلى ساعة في ستين عاجل من عواجل الموت وريبه ، فإني لست ممن مع الخير إن كان سابغا، ومع الشر إن كان جامحا ، فإني مع الحزن إن كان سعادة ، ومع الألم إن كان بعضا من ذلك الحزن ! ..

أيها الدهر ! احتل لي حيلة على هذا القلب فإني لا أريده ، فإن طال عليه الأمد وهو فيك ومضة كانت كلفتة ثم تواصى به الدهر همودا ! أم أن موتك أيها القلب في معنى من موت الفراشة ؟! فيها خمسة ألوان اصطبغت عليها الحياة فأصبحت خريطة من الجمال تأتي على اسمه ولكن لا تأتي على معناه ، فتجد فيه نفسك وشوقك وحنينك، وتبصر في جناحها أستاذا من أساتذة البراعة ، أو معجما من ألفاظ لها نبضة في جوفك ترى فيها أحلاما وخيالات فتحسبها أسرارا ما بها إلا أنها في ذات أخضر أو ذات أصفر ، بل تظنها مرجعا من مراجع الحياة في فتنتها ، أو الطبيعة في سحرها ، فترى فيها السطر منه النور ، وتسمع بالكلمة منها النسيم ، وتشعر بالعبارة وردة ذات أوراق في كل حرف ورقة مكتوب عليها : ها أنا ذي ورقة في حرف ، فكن لي قارئا في لون ! كل ذلك ثم تهوي إلى نور فيه حِمامها التي تظنه جِمام قلبها وسلاته ، فتمضي أشعة من جناحها كفنا لجسدها ، ويمضي النور الذي هو سيف على الظلام وطريق إلى زواله حدا على رقعتها ، أو ممهدا لها في قبر ! .. أأنت أيها القلب مثلها ؟ أفي موتك ضياء أم أنه احتراق سواد بسواد ، أيكون منك خمسة عشر عاما في وعث ، ثم أخرى في شعث فتكون كالمرآة الصقيلة ولكنّ عيبها أنها لا تعكس إلا أجساما معفّرة لا ترى عليها مخايل من جمال أو خير ، وما عاد في صقلها إلا بما عاد في قبحها .. وما عاد في عكسها صورا إلى عكسها حدثا ثم وقتا ثم زمانا برمته فيه المكان والموقعة ! ثم تموت بغتة وما يُدرى أحيٌّ بعد أنت ، ولا تجس عن يد ولكن يجس عنك قلب ، فإذا آمنته على خفق فقد آمنك على لوعة ، وإذا حرمته منها فقد حرمك حنانا ! ..

يقولون إن فيك مهبط العطف ولكني أراك موئل المكر ، ويشيّعون منك اتفاق حب وائتلاف سعادة ولكني أراك تناكر أضدادٍ واجتماعها على ما تُحب أنت ، ويحسنون بك ظنا إذ يقولون عنك رحمة جُمعت شؤما ، أو شؤما استحال عطفا فهو أبدا في خير وشر ، ألا لعمري إن كانت منك نازعة إلى الشر ولو خطفة عاجلة ، لكنت شرا ينفث النار حين يظنها الناس طيبا ، أيكون منهم ما يكون منك ؟ ، فإنهم بألسنة واشية وإنك

بدم متألم ، ولديهم عقول فيها فكر إما جادّ أو منحرف ، وأنت فيك أمنية إن كنت عندهم كما أنت عند نفسك فإنك دائما إلى انحراف ... مهلا أيها اللسان مهلا، فلربما استنقذ منك القلب كرامة فراح بسوط بعضه عليك فإذا أنت ورقة تحاتّت أو ضمير خان ! .. بل لعلّ له بغيا على هذا القلم الذي لا ينطق إلا مدادا مهذارا ، أو حبرا مضياعا ، فما يكون من جفوة القلب له إلا صفحة تجعل من أحرفه مدادا ثائرا كأنه الزئبق إذا ما أوريت منه شوقا أو ألما !

أم كان من مثل ذلك القلب حجر نرد له ستة أوجه في خيال واحد ، وله ستة خيالات في وهم واحد ، وله ستة أوهام في حزن عارم ما يلبث في النرد إلا إبطالا فإذا هي واحد وعشرون وجها بها عشرون حزنا وسعادة واحدة معها ! وتمضي خديعة من تلك الحصاة المنقوشة عليها ثقوب ، مصفاة للحقائق من ثقب إذا كانت ألما ، ومن اثنين إذا كان حنينا وشوقا ، ومن ثمانية عشر إن كان حزنا ! ...

لا أجد لذلك القلب من سبيل إلا ثلاثة .. أولها كذبة مُزحزحة على الحقيقة احتال بها مرة ثم أُخدع بها أخرى ، وثانيها شوق أعنيه منه وأشتفي ، وثالثها لمسة فإذا به يطير إلى مدار من السعادة إن كانت بإصبع من نور ، أو إلى فلك من الحزن إذا كانت بقبضة من الحديد والنار ! ..

لا تكلْ إلى ظلام علم الضوء ، ولا تدع في نفس خبيث تدريس علم الشرف ، وكذلك لا ترجُ لقلب مساقا في علم السعادة يأخذ بالقياس على الدليل الراجح في فكره حتى لو كان ساقطا في مذاهب شتى تراها من القمر والشمس والنجوم ! .. فإن العلم منه كالجهل من غيره ، إذا لم تستقم له مسألة نزع عليها من الكذب والتلفيق ما يجعلها آية الآيات حسنا ، ولو أنك أجلت الفكر والعقل لتريّن منها شيئا عظيما .. !

أترى ماذا في قلب جدث أحياه الله بنور من عنده ثم أنزل له من السكينة والرويّة فأصبح قلبا لا كالقلوب ؟ أترى ماذا في دمع كان هطّالا ممتنعا فأسجاه الله إلى الأرض أو عاد به إلى العين ، فجرى للأرض نور ولتلك العين أنوار ؟ أترى ماذا في عقلٍ زاد على الكفر في شبر وعقدة فابترك إلى الله في ميل وفرسخ ؟ .. أترى أن روحك من جلدة الثرى قد أُحكمت ثم جُعل منها جسد ترى ظاهره من باطنه ، وباطنه من ظاهره، وتسمع له أنينا في صمت ، وترى في صمته تسبيح المسبحين ، وتذكر أن في نفس له إحجاما ولكن إلى بر، وبر ولكن إلى الجنة ! ..

لقد كان لي قلب ما أحسبه إلا اتفاق رحمة من الحقيقة في كدر من الواقع، أو كأنه حبسة من يد التاريخ والأحداثُ في وخطٍ له ، ومن المستقبل والنكبات تستنفر عليه ، أو كأنه وتر إذا نقرت عليه فقد عالجت نشيد الحياة التي تستهويك فيها كل خميلة ميّادة ، أو شجرة رعديدة ، أو طائر صادح ، وفي كل شيء منها لحن من ذلك الوتر ! ليس بين النشيد والأوتار والزفرات والقلوب من شيء ، فإن في زفرة ضلّ

سبك لحنها وفي نشيد استقام كأنك تراه عجب الحزن ، ولا فيما بين الأوتار والقلوب ، لا ترتدّ عنها أصداء إلا إذا كانت حاجة لعزف يقطع الأحشاء ، أو يقطع الموت ! ..

إن في ذلك النشيد لماض ينطق عن نفسه ، وحاضر ينطق من جرْسه ، ومستقبل يتحدث لنا غيبا ويوحي لنا خبرا منه الصادق وأكثره الخيال ! .. افتح كتاب الطبيعة واختر من كل زوج ما تشتهي من الأصوات وألحانها ، وأطل بفكرك ما شئت فيها ، ثم اعقد عليها حصرا وتدقيقا فلن تجد وراءها إلا وترا خفيا كلما أنصتّ أنت لحن هو ، وكلما تلفظت قطّع لك لحنا كأنما يقول : صهٍ ! اسمع لي مليا فإن لديّ لحنا لم تسمعه بعد .. سترى في ذلك اللحن بعين وسمع فأذُن ، ولعقل بقلب .. انظر لهذا الوتر فسترى طريقا إلى الماضي ممرّدا بسعادة القلوب وهناءها . واسمع له فلعمري سوف تسمع نغما فيه سراج بل فيه نور ، يضيء لك الماضي ويخبت لك ما سواه ، وللقلب مع ذلك النشيد حال أخرى !

ما ظننت في ذلك القلب له من ذلك النشيد السعادة وحدها طريقا ، بل ما ظننت إلا أن معاني الوتر فيها من معاني القلوب وأصفاها ذلك الخفق .. ! إن ذلك الوتر لا يخفق دما بل يخفق لحنا فيه شكل الدم ولكنّ الدم عن شكله في نفسه براء . أكنت تعرف أن في ذلك الوتر لسانا ينطق وقلبا يخفق وعقلا يعقل ؟ أو تعرف أيضا أن فيه روحا نابضة ترى بها الآهات من كل جانب حتى لتعدّ تلك قرينة زفرة إن كانت قرب قلب ، أو مشاكلة لنشيد إن كانت تتأبط وترا ! ..

عندي أن الحياة لا تستقيم لأحد إلا أن يكون له منها نقيضه ، فأنت لا ترى في النبات الجيّد السويّ إلا وخلعت عليه الطبيعة ردحا من ثوب القفر والقحط رقعة من الذويان والظمأ ، وترى النهر الذي لا بأس بسعة منبعه وبسط مورده إلا وقد انتبهت فيه شعلة الجدب فغار في الأرض واتخذ لها من دونه سبيلا فما كاد إلا سراعا يتدفق وسريعا يجري ، بل ما يخفى عليك من ذلك القمر الباسم في شكله ودائرته البديعة ، ولن يكون كذلك إلا بسواد ما حوله ، فأنت تراه بارزا مميزا ، في حين لا تعرف القطعة من الليل إن أنت أومأت إليها ببصرك أو أشرت لها ببنانك ، وانتشل منه القدر شظية فعاد وما يكون من نوره لو كانت تلك معه ! ...

اسمع ، اسمع ! هذا هو الصوت الذي عليك أن تسمعه ، إنه صوت ذلك النشيد تخطّى الأيام والليالي ، وأثبت قدما في مكان غير ما هنا ، وزمان يُحصى بحياة ثم موت ثم حياة ، فاليوم أنت تراه ضوءا سطع بعد طول ظلمة كان فيها ... ويحي ! لقد كان فيها نشيدا ولكن من نور الشمس ، وله ألقٌ ولكن من فتنة الحياة وبهرجها ، وله حسن ولكن من حسن ذلك القمر يوم هلاله ! ..

ما أحسبني عقلت شيئا إلا ورأيت له صورة في عيني ثم صوتا في أذني ثم منطقا في عقلي ، إلا ذلك النشيد ! فإنني سمعته فوددت لو أنني رأيته ، فرأيته فوددت لو

أنني اختزنت مكنوناته فيّ ، فأصبحت طوعا بين يديّ وتر ، وفي في قلبي هو نشيد ، فرأيت كيف أتت كل معجزة بأختها ، وكيف اشتدت كل نزيلة عليّ بالتي قبلها !..

لقد جمع ذلك الوتر من اللحن والنشيد والمجوّد أتمّها ، فترى في بعضه ذلك الوتر الرفيع وفي آخره ذلك الوتر الغليظ تسمع منه الخوار في أرق معانيه التي خرج لها ، والهديل في أضخم الأغراض التي من أجلها صوّت الحمام ، وترى بين أنواع كل سريّا وهمهمة من ذلك الصوت ! .. التفت بوجهك إلى ذلك الجبل أفترى حجمه ؟ وانظر إلى ذلك البهيم أفترى ضعة أو قسورة ؟ بل أدر بوجهك في هذا الكون أترى وسعه ونظمه ؟ .. كل ذلك له من ذلك الوتر نقرة ، فصوت فتنهد فطرب لا ، بل حياة دائمة ! ..

أفيكون في غير ذلك النشيد شيء من الذكرى ؟ لعمري إنه الذكرى تأتيك بجملة من الأشكال والصور فيها حنين وشوق ! .. أيا أيتها الذكرى لهو اليقين الصّراح أن تأتي مع ذلك النشيد الجميل فتزيديه جمالا ، أو مجيئك مع ألحانه فتزيدينها تأثيرا في نفسي بليغا ، أو تأتي مع وتر فتزيده عمرا !. أسألك في شيء فتجيبين بشوق من يدك إلى قلبي ، وأنتظر منك فتسدي لي حنينا من قلبك دمعا لي ، وفي كلاهما تجيئين لي بأحدهما في لحن بديع من وتر ، وفي الآخر وتر من لحن بديع من ذلك القلب ! ..

بل لقد يجتمع من الحنين والشوق سحابة من الحياة ترفرف فوق أرض الموت ، فيهما ما ليس يحطهما إليه وفيه ما ليس يرفعه إليهما ، ولقد يكون من تلك السحابة طلّ فذاك لحنها ، وبلّ فذاك نشيدها ، وبرق فذاك وترها ومطر فتلك أشجانها .. !

إني أقول لك : اسمعه وانظر له ثم اعقله .. فسوف ترى في نفسك لحنا مركبا من دمك ودمعك وصوتك ...

الفصل الرابع

كلمات الذكريات

(١)

قد أرسلت إليك خبري ، وقد أودعت هذه الرياح تحمل خبري معها ، وتجري بها طائرة بعيدا... في الواقع لم تكن كلمات ، بل ما كانت إلا أشجانا وأحزانا بعثتها إليك في ثوب أوراق ، وما كانت إلا آهات وزفرات ضمّنتها هذا المداد ، وما كانت إلا أشواق وآمال جعلتها في هذا الظرف ... ولي أن أتخيّل عظيم سرورك بهذه الكلمات التي خرجت مني ، ومدى انشراحك لها وانبساط أسارير وجهك إقبالها ...

(٢)

وما وقع في نفسي من مثل ذلكما الطيفان ، إلا كروحين اثنتين ... أما أحدهما فقد تقادم عليها العهد حتى أصبح ما مضى من قدرها نسيا منسيا ، وتركا متروكا رغما عنها ؛ لأنها ببلاء الكبر أعظم منها من بلاء النسيان ، فتاقت تلك الرّوح إلى أخرى بعيدة عن زمانها حتى توافق ما بين الزمانين ، ويتم وصل ما قُطِع من طرفيهما .. فجاءت الأخرى بحلّة جميلة وسدّت ما نقص من الأخرى ، فكانت كالمجبّر المقوّم

(٣)

طيف تسامى بين ذراعي ذلك الرجل ، وقد وسّد ذراعيه ليحمله ويقيه شر ما يقي رجل ولد ... فما بقي فيّ من شيء إلا واحترق شوقا لذلك الأثر التليد ، منذ ثلاثة عشر عاما كانت تلك الصّورة التي لا أدري أأريد بها تأريخا ؟ أم أريد بها تجميلا ؟ ... ويا لذلك الأثر كم أخذ من قلبي مقدارا لاستشفاء ما يحتاج منه ، فكان كوجد يزرع وجدا ... ولكن هكذا خلته تبدّى لي كي يغرّني بمنظره الظاهر وما أحسب إلا أن باطنه خير من ظاهره ، وما يخفيه أفضل مما يُبديه ...

(٤)

وإنّما أشد ما كَثُر على الإنسان من وطأة الأحلام ، هي تلك الأحلام المنبعثة من أعماق التاريخ ، وتلك التخيّلات التي كانت يوما شاهدا عيانا على هذا الإنسان الذي عاش الماضي رغيدا سعيدا غير هائم على وجهه أو منغص. هي هذه الأحلام في مصطلح الحياة (الذّكريات) ...

(٥)

كان طيفا من ذلك النّور الوهّاج ، قد تشكّل وركّب على هيئة ما رأيت مثلها قط ، وكأنه زاد فوق نوره نورا ، وسطع فوق بريقه بريقا ... طيف حسبته ظل غمامة علياء راقدة على صفحة السّماء مترنّحة كغدير رقراق أصبح يحوم على جميع من في الأرض يسقيه من ظمئ يحل به من همّ هذه الدنيا ، ومن سقم قد صار به من كل ما حوى من الذّكريات والأحلام ...

(٦)

وإن لذلكم الطيفان تحت ذلك الإطار المنشود ، لصورة من العجب ، وقد تداخلت فيها مسببات الإعضال والإعجاز ، فكان الطيفان إنما صورة سطحية لما خلفهما من روحين نابضتين ... وتلكما الرّوحان ما ألفتهما في شيء ما ألفتهما في قدر ما بينهم من توادٍّ وتراحم وتعاطف ، فيا لها من مصادفات الدّهر أن أرى ما قدّر لي معايشته قبل ثلاثة عشر خريفا ... وإن لفي مجامل الياقوت فيه لنصيب ، وفي ما هو كائن من البهاء والحلي ، لمنظر ما مثله منظر، ولمأثرة ما ثقفت غيره من مأثرة ...

(٧)

قال : إننا نحن ما اجتمعنا هاهنا من أمرنا إلا ونحن كما مثل من فقد نصفا من جسمه ، فكان نصفين من روحه وثلاثة أنصاف من عقله ، فجاء ذلك النور ، فدفع ما كان من نصف جسمه إلى نصفي روحه إلى ثلاثة أنصاف عقله ..

(٨)

والآن وأشواق الحنين تندفع مني اندفاعا كأني بجيش عرمرم يخطو بجسدي مسرعا إلى ساحة الوغى ، وكأنني بنسمات ريح تهبّ صوب شيء يلفت أنظارها ويجتذب أنسامها ، وكأني بحالتي تلك لمضطرب اضطراب الحائل المائل، وخائف مخافة الصلف الجاهل .. وكلّما أردت أن أحيط بوصفها تسبقني اندفاعات الحنين ، وتجيش بها عبرات تستقي منها جباه عقلي ، بل جباه قلبي ما تريد منها ، ثمّ إلي موئلها حيث تريد بعد ذلك ...

(٩)

قالت لي نفسي : أيا أنت ، يا باحثا عن حقيقة أمرك ، ويا مفتشا عن أسرار الماضي ما عبثك ؟ وما الذي أنت مهمهم نفسك فيه ؟ وعهدي بك في رغد رغيد ، ويا ويحك لعمري ما أنت إلا مسفسف تُريد أن تخرق الأرض وأن تبلغ من الجبال طولا...

فقلت : وما لك من أمري ؟ وأن أحاول أن أبحث عمّا كان به عزائي، وأجهد نفسي لأفتش عمّا ضيعه الزّمن مني وإني وإن كنت يوما مهمهما ، فسأكون يوما مسددا ...

(١٠)

وليس القلم كما يصفه أهل المعرفة من أهل الجهل ، وقولهم فيه إن القلم مادة من مواد الأرض ، ولا يتعدّى كونه قصبة من مدر التراب أو الرّغام ، فإذا كان ذلك على حقيقة و صدق ، فكيف بالملائكة تسجّل بأقلام نورانية سماوية ؟ و هذا القلم ترابي أرضي .. فمهما كان القلم من هنا أو هناك فإن فيه روح ومعنى القلم ، أي ومعنى كونه قلما ... فسواء كتب به إنس أو ملك فسيبقى مادة مشتركة بين الكونين و شتان ما بين هذا الاستعمال وذاك ، فحسبه إذا أن يكون موضعا لخلاف أهل الأرض منه إلى أهل السماء ، فأهلها متفقون على أنه خُلِق لعملهم ، وخُلِق من خلقهم بحالته النورانية تلك ... وأما أهل الأرض فباتفاقهم مدعاة للمشاكلة والمخالطة والخلاف ... ولكنّها الأقلام كالرّماح الممتنعة عن الضرب إلا عندما تريد أن تصيب ..!

(١١)

وإنه لفي أطواره لا يعقل أكان قبل ذلك أم لم يكن ، وما إخال إلا أنه في كل دهر له شكل جديد ، وفي كل زمن له صورة مغايرة ، وفي كل كون له صورة يظهر بها زيفا ، فلربما كان حظنا منه ذلك السّواد المشؤوم ، وتلك اللحظات المريبة ، ومنه وفيه خُلق هذا الليل ... وإنك أيها الليل خُلقت أسودا لأنك تكره الأبيض ، وتمقته وكأنه مبدأ فنائك ، وأن موقع النور منك موقع العلم الثمين اخْتزِلَ داخل عقل أحمق سمج لا يستطيع إخراجه وإبداءه جديدا ...

(١٢)

وأسبح في زورق صغير نسجته لنفسي من النور الخافت في نوره الوضّاء في سطوعه ، وكنت كمن حاول أن يجد نفسه هاربة منه ، فيبحث مضانيا به الجهد ، ويمحص متحديا به التعب ، ثم لا يلبث واجده بين يديه يقدّمه اعتذارا لليل ...

(١٣)

وإني كلّما انزوى بناظري مجموعة من النجوم خُيِّل إليّ أن وجهك فيه منير ، وأن ضحكاتك منسوجة نسجا بين أربطتها النورية ، ونضارة وجهك وقد ازدادت جمالا فوق جمال النّجم ، فكان آية الآيات في الحسن ، ودمغة القبح والدّمامة يسير فيها مشوها مبعثرا ...

(١٤)

وأعجب للعقول عجبا غريبا .. إذ كيف يمكنها توفيق ما لا يُرجى اتفاقه ، وتوثيق ما لا يصلح وثاقه ، وتقييد شيئين ما ينبغ لهما إلا أن يكونا متضادين بل لعلّ العقل ما مَكَن من ذلك ما تمكّن منه ، فإنه يجمع شتاتا يرشح ما بين الكونين الذي أعمل فيهما جهده ... بل لعلّ الليل بسواده طغى على العقل بنوره ليشعّ منه البياض ، ولعلّ الذكريات بصفوها طغت عليه فصارت منبع التكدير والتعكير .. فليت العقل نفسه يعرف ماذا هو عامل الآن ، ليته يدري هو ما سرّ اعتقاله ... وإني لأرى النور وقد خالطته الذكريات فأصبحت كحامل القنديل الذي يريد أن يضيء الشمس ، وبتجافيه عمّا وراءه يريد أن يُعِّم الظلام ، فقد غدى أمره بعيدا طويلا ...

(١٥)

كذلك يا قوم ما عسى ذلك البكاء أن يفعل ؟ وما عسى تلك الدموع أن تفيد ؟ هل هي قادرة على إجادة صنع السعادة ؟ .. إنها لا تتعدّى كونها أمارات للحزن ، ولا يُخطئ الواصف عندما يقول أنها إنما تتأبى على طالبها لأن ليس بوسعها أن تفرّج عنه ولو قليلا ، وفي كلّ الحالات لعلّ الدموع نفسها تخرج لأنها تريد أن تخرج ، ولعلها تخفف عندما تريد أن تخفف ..

(١٦)

لما النحيب على الحـزين تـراه ... فاعلم بـأن الدمع منه مجيب

لم يجـن ذاك الكرب إلا عبرة ... مـا كـان في قلب امرئ فيريب

جلَد الحزين كذاك فالندّاب لـه ... عيـن ويبكي في الجـواء غريب

أنت المـلوم فلا تقل لا شأن لي ... إن الدموع على الدموع تُصيب

(١٧)

ورحت أشكو ولمن أشكو ؟! فلا أرى من سامع شكايتي ولا متقبّل صوتي ، فكلّ بما عنده يعمل، وكلّ بما حوته يداه قابض غير باسط ، وإني ومن فرط حاجتي فزعتُ إلى هذا القلم علّه يمحي بعضا من ألم وحزن ظاهر ، وآخر باطن لا يكاد يبين ! ... وسألته بأيهما أبدأ ؟ أبالحزن الذي تراه أم بالحزن الذي تشعر به ؟ أبالذي فزعت منه

إليك أم من ذلك الذي فزعت إليه منك ؟! فما نطق جوابا ولا أسدى نصحا ، ويكأنه لا يرى حياة هذا المرء إلا بعضا من حياته ، لا تنقطع بانقطاعها ولكن تستمرّ ...!

(١٨)

يجري القلم ويحتبس ، ويمضي وينقطع ، ويسير ويقف ! أكلّ ذاك لأنني ساورت خاطرا حتّى لكأنه وحيٌ من الإلهام ؟! وأنت ياذا الملامة تلمني لأنني حاكيته ؟ فلا عليّ أن تلومنني ولا عليّ أن تقرّظني فكلّ ذلك مرادّه إلى سوء أو حسن ظن و هو متعلّق بك لا بي ! ..

(١٩)

ولكن الذّكريات ما تحتويه بأحلامها أكبر من ذلك كلّه ، وأن ما يفصّله ابن آدم دائما يحاول أن يبعد جميع ما يشوّه هذا الفصل ، إلا أن مثلبة مستديمة تبقى ولا تزول ، ألا وهي النقصان ... وإن الله لم يجعل بعياله عاهة لتعوقهم ، ولكن ما جعلها بهم إلا لتعلم أن جميع ما حوت كلمة الكمال من معنى هي من نصيبه وحده ، ولا مجال لأحد أن يساومه فيها ، فهو خلقنا وخلق هذه فينا، وجعلها معنا في كل ما لفظناه في هذه الحياة ...

(٢٠)

تكفيك ذي الأيام أوفى شاهد

وأجـل محمودا وأحلم غالظ

ياكم تسوّرت الهوان فلـم أجد

إلا دموع الحزن أثمن باهظ !

لا كنت في رشـد إذا لم تنتصح

فلربما الأيـام أفصح واعــظ

جزعي لقلـب قد تخطّفه النّوى

أسيافـه أهوال رمشـة لاحـظ

الفصل الخامس

وحي الظـّلام

إن كنت يا ذكريات الصفا تريدين جلاء فهذا اللديل ههنا ، وإن كنت تريدين منزلا فهذا القمر وهذه النجوم ، وما من سمير لك إلا قلب يهوى الماضي وذكرياته ، ولن تجدي في غيرها من القلوب سميرا أبدا ! . احبسي نفسك في سجن من عقلك فستتبدى لك أوهام مجبولة بطينة الإنصاف ، واحبسي من عقلك في سجن من قلبك وانظري فيه فإنه ليلٌ مدلهمٌ قاتم فيه من نسيج كل ليل يمر على هذا الكون معنى بل معانٍ ! .. سترين فيه سوادا ناصعا ، وقمرا بازغا كأنه شمس ولكن ليست بألسنة تقذفُ ولا لهيب ينزف ، بل النور يكون من جميعه إلى محطة منا وهذه الذكريات ، وسترين فيه فكرة عقلية كأنه مصطلح من مصطلحات أهل المنطق فيه التزويق والتزوير ومؤونات الكلام الفارغة ..! أترى ماذا يكون في التقاء ميت بميت ؟! أمنهما موت كالذي ارتقى علو جبل أو قمته ثم يمنعك موتك من النزول وما رأيته ولا شعرت به قط ! وما يكون في ذلك من تبسيط في القول بأن الجبل ليس كالموت .. ولكن المتسلق هو آية الموت ! أم يكون منهما نفس تحيا حياة كالذي ما أراد بحرا يعوم فيه ويمتطيه ، ولكنه ازداد عنه بنهر جار عليه بعض ماء البحر ، فاتخذ ذلك غرضا وودع هذا عرضا . ما يكون في ميت وميت إلا حياة دائمة من ليل ونهار ، وشمس وقمر ... لا لا بل لعلّ ذلك اللديل فيه نور وأنوار غطّى سناها حتى طفح بما عاد ثم تهوي النجوم بأحمالها ، ثم يُركب ذلك القمر بنوره ثم تأتيه سحب الملائكة من كل جانب . في هذا يكون الليل نورا فنهارا فشمسا ، حتى إذا ما عاد في نفسه أنه بعض من نظام الكون ، يسير عليه استدرك فإذا به يستكين ويذلل ، ولذلك النهار يفسح قلبا وإن كان لا يملك إلا قلب شيطان ! ..

ستحمل أيها الليل الآن ذكرى ما إخالك عنها إلا مجهد فكيف بك معها؟ ستكون في جنبها أميرا تأتمر بأمر صارم تنفذه إليه ، ولا ريب في قلب من القلوب ذلك الأمر فلا تضنى وناجز بهمك وابثث لي شكواك فلعلي أستطيل حتى ذلك القلب وآتيك به تعزية وسلوى . أما لي بعبرة جميلة أيها الليل الجميل ! ارو لي فاجعة أو تحدث بنكبة أو ذكرى حزينة فلا أُريد منك إلا عبرة تهديها بكلام ترسله نافذا مع آهات نجومك في شكل من مدّ القمر ، وأمله ينطلق حينا ثم يُحتبس أحيانا ! .. قد يكون في معنى دمعة معنى دموع ، وقد يكون في معناها حكمة لا سبيل لها إلاك أيها الليل مستودع الدموع ومستقرها .. قل لي ، هل لك عندي شأن أقضيه إليك فقد وجب القضاء عند الوعد ، بل هل لك في كلمة تستنزف الدمع رشفة واحدة أو مجّة واحدة إلى نجم من نجومك ، أو قطعة من فلاتك فتنقلب نجما ثانيا ليس فيه إلا دمع ونور بل وظلام ..!

من لي بنظرة من عين الحقيقة كي أُصيب في ما زوّرت نفسي أو أجزم بما أنا مختال فيه لا إلى يقين ولا إلى إنكار ؟! من لي بذكرى تعيدني فإذا أنا حاضر هنا حاضر هناك ، مولّه بذكرى كانت ثم كنت ثم كنّا ليلا فيه دمعة متخضبة من نجمة مكروبة فهل لأحد من سبيل فيأسو كربتها ، أو حتى بعذر كاذب من الليل لتلك النجمة ؟! .. وأنظر إلى دمعتها وهي تتمدد ساقطة عن وجنتها متجهة إلى الأرض كي تعلم بأنها الآن ليست كما كانت ، ومقبرة تلك الدموع حدودا غير مرسومة ، فكانت للقلوب أقرب ، وللنفوس أشوق ... وما إخال تلك الدمعة إلا ذلك الغيث الإلهي الذي يُنعم به على عباده البائسين الحائرين في هذه الدّنيا ، ويبعثهم من جديد على غير حالتهم التي كانوا عليها قديما .. ذلك هو دمع النّجوم ...

إنها كلمة سأنبذها ثم فلتكن أيها الليل هادما فيّ أو فيها ، ولتكن بظلامك قبرا لي ولذكرى فيك آمل أن تكون فيّ وإن لفي تلك الكلمة لمدعاة للبكاء ! : انظر هل ترى قلبا مسجّا على سرير ؟ انظر هل ترى دمعا من شهيد إلى فقيد؟ انظر إلى ذلك فإنه عقل في فكرة ، وقلب في حزن ، وعين في دمعة ، هل لك بشيء من شكاتك إلى شيء من شقائك ... فذاك أيها الليل الميت والميت ! ..

حسبي لحظة في جوارك عن دهر بدون ذكراك ، أتنفعني في الشمس حسبي؟ .. إن سطرا من الذكريات في ليل خير من دهر بدون ذكريات ! فماذا يكون من قول أو فعل أو رعشة في شمس أو قمر إن لم تكن في ليل أدهم كهذا الليل ؟! ، سرْ بنا يا حادي القلوب إلى تلك الذكريات وانصب لنا ثم احمل أيها الليل نفسك حنينا وفي قمرك شوقا وبين أنجمك ألما ! .. فإني سارب إلى هناك وما أظن شوقي للذكرى سيجعلني هاهنا استملي الصبر والتجلّد .. أنك أيها الليل جميل ، ولكن جمالك نقمة على الذين يتوهمون بذكراهم وذكرياتهم ..!

هاهي الذكريات تنساب متدفقة كخيوط حريرية على صفحة السّماء تخيط لها سحابا أبيضا ، وتنسلُّ واجمة وتروح غائدة فيها من نعيم العيش ما ليس يلوح لنا طرف منه ولا قبس ... ولكنّ الذكريات وعندما تتبدّى في أُفق الليل المظلم فهي لعمري قادرة على أن تجعل الكون يسبّح بحمدها ، ويعرّج عليها وكأنما أخذ أنفاسه منها فما طاق فراقا ولا أصاب وداعا ...

أأنت كما أنت ؟ مظلم في نفسك وفي من حولك ، أما تشفع لك ذكرى عند امرئ في سبيل دمعة هي النور الأرضي كلّه . كلما رأيتك في طور حزن أزداد سعادة محزنة ، وكلما رأيتك تتقلب في أجفان السماء ألما كان فيّ جفنها وأنا بعضه ، بل كلما رأيتك مرتاعا أسفت على شيء لم يكن ليبهجك .. أنت عندي كما هذه الذكرى في منزل منك ، فلا تكن ممن إذا ألحّ عليه النوم ثقلا ، ويتجافى ثم يقول : هذا ليس نوم ، بل نوم في ذكريات ..!

تقول لي نفسي : أهذا هو الليل شجن الذكريات وحزنها ؟ إنه سعيد سعادة تفيض عليه بحزن ما يكون معه إلا نطفة في ذرة في نهزة ثم جردها إلى بحر عارم هدّار فذاك هو الحزن ! فقل له أيها القلب حديثا علّه ينتقض ممنونا ثم يهوي لك بذكر فذاك وما تطلب ! .. فقلت : أو ما يكون عندنا من شيء إلا ليل فيه ذكرى أستجديها منه ، فإنه لهوان على أن تكون الذكريات في زمام ليل ما تجدين منه إلا سارقا أو مخادعا ، ولكن لا عليّ فأنت أيها الليل لقِنٌ كما لم يستبن ما في قلبك من ذلك الضوء الذي هو فيك ! فلتكن يا ليل ذكرى سوداء ، وليكن قمرك ألما بديعا تنزل من تحته معاني الصدق فيعتصر عليه فما أنت بإزاء قمر ، بل بإزاء قلب وعقل في دمعة من قمر ...!

ماذا يكون في عقل الثمل حينما يصحو ؟ أو في المجنون حينما يستفيق ؟ أو النائم حينما يستيقظ ؟ .. أيكون منهم كالذي فيه ذلك الناسي حينما يتذكر..! يا أيها الدهر اضرب بنفسك في نفسي فقد تزحزحت عن حياتكَ ، اجعل من هذا القلب قلبا لا يعرف إلا معنى الدم يخرج ثم يعود في دورة هي الحياة، واجعل من عيني دمعة هي الحزن والبكاء والسعادة والضحكة أُسقطها فأُسقط ، واجعل من عقلي فلكا فيه الشمس والكواكب والنجوم رتيبة لا تعرف الحياد ، ولا اهتبال فرصة للهرب من ذلك الفلك إلى ذلك الموت الكلِف ..! سأمضي في تعديل النفس ومساومتها في رحمة وعطف ، وإلا في ذكرى ودمعة . ما يكون الموت مثل ما تكون كرة الشعر تسقط من يد الحجّام ثم تداس بالقدم ، وإنما الموت عندي كوكب بنفسه من الجنون والنوم ... ولربما الذكريات أيضا ..!

انتظر ذلك النهار الأبلج وابسط يدك إليه وافصم به دهرك دهران ، دهر كان للذكريات ودهر أنت فيه ذكرى ! هذا هو عمر الليل فيه ساعات وساعات وأزمان تمرّ وأخرى تأتي وذكريات تنقضي وبعضها يُحفظ ، وفي الشمس لما تأتي فيها ضوء وضوء وضوء ثم تكون كنفخة من نور ذلك القمر في معناها لا في شدتها، وتنشط نهاية عمر الأرض وبدء نفخ جديد ...!

مدّ أيها الليل لامرئ عضه الدهر بنابه فأوراه عليلا لا يكاد يمسك على نفسه من وكزة العمر ، فمنهم من يقول إن الكلمات التي تُقال لتخفيف أحزان المحزونين وكبوة الهائمين لا تُجدي إلا أن تجعل في يديك منهما معنى قرينه . انظر إلى هؤلاء وانظر إليّ ، أتلوّع لامرئ طاش السهم عن قلبه فما انزاح إلا للذي أحدثك خبره ، وأرى الدهر يقضي لفلان في علّة فأحسبها أغلالي وُضعت في يد غيري ، أنت أيها الليل مدار الذكرى فأهمل من فيضك على هذا القلب المشحون بالتهلكة المقبل على هاوية المدبر إلى شفير يهوي به في أوسع درجات السقوط ثم لا يجد ما يلوذ به إلا نجم يأمله بأمنية زائلة ، ويلحظه بنظرة عاجلة ، ثم يغدو في عداد نجم من نجوم الموت ، وتراه شيئا عظيما في موته وانقضاء لوك الألسنة به ! ..

شدة ثم رخاء ، ثم حياة بعد موت ، هو هذا الإنسان في هذا الدهر ، ولكنه في الليل موت بعد موت ، وحزن بعد حزن ، فإذا هي حياة وسعادة منهما يكون امرؤ في حياة أشوى من موت لا يُرى معه ميتا ..!

دعني أخبرك عن نفسك في شيء حارت ورقة عقلك فيه من قلم يكتب بمداد الذكريات . فيك أيها الليل ثلاثة أوردة من كل وريد لك سحر تنفث به ودم يلهث وراء خفقه وطرحه ! ما أعجب لأي منها عجبي لذلك الأخير ، فإن فيه قلما نورانيا يكتب عليك الضياء ولو كنت أدجى من النهار ، ويجنح عليك بذكريات حتى أنت عنها في ازورار . أقدّر ذلك القلم وما فيه يكتب عن كل صغيرة وكبيرة عليك ذكرى وعليه هو حقّ وعدل ، وما يكون أدنى لامرئ ما يكون أقرب إليه من نفسه التي ينزع منها ..! إن هذا من بعض ما عرفت عنك يا ليلا فيه سلام الأرض للسماء ، وعجزها صفة تبعث بها تحية لا يقوى عليها إلا ملك كالـ .. الحمام رسول القمر ..!

كن أيها الليل هادئا ، واجعل من قلبي معركة تدك ، بل اخرج في أنشاب ظلماتك تاريخا لحياتك حتى اليوم ، ولن تعرفه إلا بدماء الذكريات ، ثم صدّقها على شعاع منك إليّ فها هو القرب قد دنا ، فلتكن في ليلة من عمرك ظاهرا وفي أخرى مقهورا عن طيب نفس منك ، فإنك إن لم تُقهر اليوم فتلك الشمس جاثية على مدار منك تلبث متوفّزة حتى تُجهز على نورك الوهّاج هذا ، فاصنع منه موتا ثم اصنع منه حياة ، بل انسخ حياة ثم انسخ مماتا واجعلهما نقطة واحدة من الذكرى في سيل هائج من النور !

كن وجها عابسا في آخر ضاحك متى ما استترت في جوفك الأحلام والأمنيات والذكريات ، فأبدها لنا واجعلها في موضع ينزل من كل منزل مستبدّة بضحكات مجلجلة فتلك هي السعادة ! .. بل كن ليلا صامتا فقد ألفتك ليلا نوّاحا هائجا فتكون ذكرى أنت لها و هي ليست لي ، لقد مضى العمر وارتحل فارحل أيها الليل وأبق الذكريات ، لكن رهينة مكرهة إما أو راضية سعيدة كذا أو محزنة ، قليلة أو كثيرة !..

أشأوي عليك يا شمسا منك نور ؟ ويا سماء منك نار ما تخلو من شائبة فاطرحيها على ذلك الليل ، فلربما تهوي ويهوي إلى ردم وأين ذلك الردم..؟!

إن درت حول أمنية تهدي عن ذكريات ، وإن استنفرت من دعاء إلى نكبة فقد بهتّ. امضي فما عاد في طوق أحد أن يرى ليلا يجري عليه بكل طائحة بعنقه ، ويرى منك في كل شيء سماء من الظلام وظلام من سمات الدهر أعيا الزمان عليها فانتهت !.

قل لي ! أيكون في لحاء الآراك مطهرة للفم ؟ فلم لا يكون لي من نورك مطهرة للقلب، أم أنك لا تنبت في النور نبتا بل تجهر له بكلمة ترسل فيها دويّا حاميا ، فها أنت منك وفيك سرّ الشر ، وشر السرّ ! ..

أيكون فيك سارق فتصمت ؟ أو يكون فيك دسرٌ تدقها في قلوب أموات وأحياء ، بل أحياء وأحياء ؟! فيمضي في شوقك الذي أمّلته نفقا يضرّ بالسقم أكثر من آثار السقم ، ولن يذهب بعضه ببعض ما دمت في إخضاع نفسك على نفسك .،. لن يذهب !

لا تُنصت إلى هذا الليل أيها القلب ، فإنه ليل ناعب ينتظر عنك من ليل أسود أن تكون فيه فلا تكن ! ... بل ارغب بدم من دمك أن تُنصف فيه ليلا كمثل هذا الليل ..!

الفصل السادس ... الباب الأول

الدموع

بين الدّمع والعين مسيرة تحكي آهات وأشجانا نفثت بها القلوب فكأنها صارت ذكرياته وحنينها ، وبين الدّمعة والدّمعة لأحاسيس ومشاعر تتغيّر وتتبدّل ، وكأن بتلك العبرات تعبرُ المرء في مسالك ومدارج مختلفة حتى أضحى الإنسان يختلف ما بين شكوى وفرح ، وسعادة وشقاء ، ومسرةٍ وعناء...

فأين من القلب الجريح تلك الدّموع التي تبرّد عليه لهيبه ، وتهدأ من روعه وقد انسدل بينهما الحجاب فكان القلب ينبض والعين تدمع .. مع كلّ نبضة دمعة ، ومع كلّ دمعة يستفيض بها ذلك الخاطر المقتول ، وتروي الذكريات تلك الدموع التي لطالما انهملت ترقيعا وسدادا لثغور القلب الذي أعيا الوجود لماذا هنا هذا القلب ؟ ولماذا الخاطر المقتول رهين تلك الدموع ؟

وهاهو القمر قد اكتمل ، وأمعن النظر في الكائنات فقرأ ما وراء صدورهم ، وما اختبأ بين ثنايا قلوبهم ، واطلع إلى ذلك فوجد قلوبا برّحت بها الآلام تجريحا ، وأقفرت من كلّ شفقة ورحمة قد ذهبت بعيدا إلى حيث آمالهم ، فمدّ القمر سطوته وقوّته على قلوب أولئك البشر علّها تلين ثانية أو يكون لها سبيل في الحنان والعطف ... فاسترسل الدمع قطرات جادت بها مُقلهم ، وانهملت وكأنها دماء قلوبهم وأمواه أرواحهم ، وكأن تلك القطرات جاءت لتسقي ظمأ الحياة وظمأ الإنسان شربة ما ينبغ له أن يطلب غيرها .. وهل الدمع إلا كماء من النار ، لا تبرح قطراته منهملةً على الوجوه حتى تشوهها وتعدم عليها جمالها ، فما قيمة الدّموع إذا قال الباكي : قد أحرقتني ؟!..

وإن لأشد ما في البكاء أن يكون الإنسان راغبا في البكاء ولا يستطيع ، وأن يكون راغبا في إخراج تلك الدّموع ومنافذ عينيه تتأبى أن تخرجها ، فتحتقن محمرّة كأنما انبثقت داخل العين بما تحمله من الدم !... ويربدُّ وجه المرء ساخطا على تلك الدّموع التي لا تريد أن تخرج لتعزّيه عمّا هو مشتعل داخل قلبه ، وأشنع من هذا أن تبدو الدّموع ولكنّها ليست من ماء العين ، وإنما خرجت رغما عن صاحبها تخفف ما تواطئ الهم والسقم عليه ..

وإن المرء لتتقد فيه بواعث البكاء فلا يبكي ، ويستفيض خاطره متعكرا وتلك الدّموع تتقشف أن تخرج لمثله ، ويتساءل ماذا يُرضي تلك الدّموع من الحزن ؟ ، أهو ذاك الذي يأتي كشيطان يتلمس صاحبه بوخزات من الشرّ يطعنها في قلبه ؟ أم أنّ ما يُرضي الدّموع هو ذاك الحزن الأبدي الذي عُقد بعنقُ صاحبه حتى أنّه أمسى وأصبح لا يميّز سعادة من فرح ؟ أم أنه ذاك الحزن الذي تترد فيه الآهات مكتظّةٌ كأنما

تتململ من طُول ما حُبست هناك ؟ ... إن الدّموع لرخيصة على السعيد ، ثمينة عند الحزين ! ..

ألا وإنّ أغلى من الدّموع ما هو كامنٌ وراء الدّموع ، وإن أغلى من ذلك البكاء هو مدعاة الحزن الذي من أجله يبكى المرء ، أم أن الحياة هكذا ؟ لا تزال تندّر العبد في أسحق دركات السقوط ثمّ تمنع عليه تلك الدّموع ! أهو الهم انبرى لكلّ سعيد في الدّنيا أن يجعله في ظلمات الوهم يتخبّط ثمّ يقول لتلك الدموع : لا تخرجي ! والحياة والكون على وسعهما ورجاحة مساحاتهما ألا يجودان على ذلك المحزون بقطرتين أو ثلاثة تذهب ما ألمّ به ؟ يا نرى ما بوسع ذلك المهموم أن يفعل وقد تكالبت عليه النكبات ؟ أيستطيع البكاء لكي يزداد حزنا فوق حزنه ؟ أم عليه أن يستر تلك الدموع الكاذبة لكي تجف منابعها ؟! ..

إن العيون ليست وحدها من تبكي ! فكلّ خلية في بدن المرء عندما تحزن تبكي بدورها بكاء لا دموع تدل عليه ولا نشيج يختلط به ، وإنما ذلك البكاء الخافت الذي يجترحه الصّمت اجتراحا ، وإنما ذلك البكاء الذي لا يزال يقطّع أحشاء الحياة ، ولا يزال ينتقص منها كل يوم حتى تغدو إنما وقت قصير سنحياه ثم نموت ! ، ولكن ذلك الوقت القصير هو سفر حافل بنوبات الكمد والكدر ، فيصبح ثقيلا صعبا لا يطاق ، ويُخيّل إلى صاحبه أنه يعيش عدد الأنفاس التي تخرج منه سنينا ، وياكم يموت المرء حينها من موتة ، وياكم يوافيه الأجل مرّة ، لأنه هي الحياة تفعل بساكنيها هكذا ...

يا تُرى من أتت تأتي تلك الدموع ؟ وإلى أين ستنصبّ منتهية من مسيرها ؟ وهل الدمعة هي خرجت من القلب ثمّ ارتفعت مع آهات صاحبها حتى بلغت مقلته فانهملت لتذهب إلى حيث لا رجعة ، ومن هي تلك العين التي ستدخلها تلك الدموع بعد خروجها من منبعها ؟ .

إن الدّمعة تخرج من العين التي هي من القلب ، وتلك العين هي مرآة القلب التي تنقل تلك الدمعة ، وتلك الدّمعة ممتزجة بالماء الذي هو أساسها وصانعها ، ولكن ذلك الماء ليس كما الماء الأرضي ، بل ذلك الماء السماوي الذي أتى من هناك ، وتتشكل على ظاهر قطرتين أو ثلاثة لأنها ثمينة جدا ...

وذهبتُ في تلك الذكريات كل مذهب ، وتعددت الرؤى هل كانت الدموع المحرّك لذلك الوجد القديم ، وأشاع ذلك الخبر من جديد .. وليت تلك الدموع هي من أسفر عن ذلك المشهد الذي تناوله عقلي ، فلو كان ذلك الماضي حيٌّ بحياة هذه الدموع وكان شاهدا بحضورها الآن وهي وقد قاربت عينيّ متوجّهة إلى حيث لا أدري، لصارت هذه أعظم وقفة أطرقت عندها في جميع حياتي...

حنانيك يا تلك الدّموع اللؤلؤية ، لو كان لأهل القبور نصيب منك إذا لانبعثوا من جديد ، ولنمت وكأن هذه الدّموع هي ماء الحياة وهي كذلك ماء الممات .. حنانيك يا تلك الدرر التي تخرجين إلى العالم لتكوني عزاء ورمزا للحداد على الذي وقفت الحياة

بوجوههم ، ولتكوني سفيرا مخبرا عن تلك المشاعر التي تتلجلج في القلوب فأصبحت خاوية من الرحمة إلا من بعضها ساقتها الرحمة الإلهية والحكمة التي انزوت بها تلك الأزمات التي تعاقبت على الناس ردحا من الأزمان لم تخلُ أبدا من دموع ، أو صيحات ، أو آهات ، أو أشجان .. ويا ليت الزمان وحده من يقف ضد تلك الدموع ويحبسها ، ولكن أين يلتفت المحزون يجد أسوارا من المنع والصد والحرمان، وهل يا تُرى حرمان البكاء كحرمان الطعام والشراب ؟ ولكنّه أثقل وطأة وأعظم مصيبة ، فكيف بالمرء الذي خُلق وهو يبكي ويموت وهو يبكي ، أن ينسى تلك الدموع الأولى وتلك الدموع الأخيرة التي شفّت عن حزنٍ ألم به وهو لم يبلغ الفِطام ، وعن حزن آخر ألم به وهو لم يبلغ الموت ...

وهل البكاء من الحزن الأرضي كالبكاء من الحزن السماوي ؟ وهل البكاء عندما يُرسل الله أشعة من نوره إلى قلوب عباده فتنهمل القطرات تنزف من القلوب التي تتشرّبها الأحزان ، وحال ذلك النور وهو ينبعث إلى القلب متخطيا أطواره وأدواره ، وينتشر وكأنما تنفسّت فيه أرواح الإلهام القادم من الماضي على هيئة دموع خرجت من عصارة القلب الحزين البائس ، وصوت ذلك النّور يرتعد صداه في ثنايا القلب ويرجّع فيه معنى من معاني الماضي ، والذكريات التي خلبت عليه جنانه ، وأيقظته من سبات عميق بات همّا يعروه في كل ثانية من ثواني عداد حياته الذي لا ينفك يدور حتى ينتهي...

ولو كانت الحقيقة نصف وهم إذا لكان الواقع هو الوهم كلّه ، ولو كانت الدموع نصف الحزن إذا لكانت السعادة هي الحزن كلّه ، يا لهذه الأقدار كم تجعل المرء غريقا غريبا في بحرها اللُّجّيِّ يكاد يقفو أثر النجاة ولكن الحبال مقطوعة فقليلا ما ينجو ولا يكاد ينجو ، فيموت موتةً نصفها حياة ، ولو أنه بقي لعاش حياة نصفها موت! ..

لماذا القلب يعيش أكثر من صاحبه ؟! أترى لأنه فيه أثر من النور القديم باقٍ لا يزال يتجدد حتى أضحى هو القلب الذي يعمل لحياة القلب .. أم أن الدموع بقيت معلّقة بينه وبين العين فآثر أن يقضي زمنا آخر كي تكتمل رحلتها إلى حيث ظهورها، أعيد أن نظرة الله لعبده أكبر من نظرة العبد لنفسه، فمتى كان للنور الأرضي محل لنزاع النور السماوي ؟!..

وتأملت ما شفّ عن تلك الدّموع وما ظهر لي من وهجها البديع ، كالأسد لا يسعى إلا لإظهار تلك الأنياب التي هي آية افتراسه ، فلو أنه كان أفلجا لانبرى له الصّائدون يختالون به من كل جهة إلى جهة ، ويسعى كلّ واحد منهم إلى ضمّه رزمة من الشعر لا من القوة ... فكذا حال تلك الدموع ، فبدون تلك الصّور التي تشعّ منها ما كان لها أبدا أية فائدة أو منفعة ، وإلا فكيف بها وبذلك الصّمت أن تخبر الناس عن قصّتها ، وكيف لها بعد طول الانحباس أن تنبس بتعاويذ يستخدمها سجّانها ضدّها .

فطفِقَت الذكريات تنهمل مع كل دمعة خرجت من مقلة سرت وكأنها حديث بين الكونين ، ومناجاة بين الزمانين ، واسترسل القلب بتلك النبضات الدائمة ، ولذع الفرقة وألم الفراق يكوي به حتى لكأنه مع كلّ قطرة دمٍ يشتعل أكثر من ذي قبل .. وكأن تلك الدموع تضرم تلك النيران في الداخل ، وتبرّد ًعليها النبضات من الخارج ، وتلك الذكريات والآن مع دمعتين ظهرتا لي من قبس من العين مضيء كأنه نور من الملائكة محاطا بظلمة كأنه نار من الجان ، والدموع بين حالتين اثنتين تتأبى أن ترجح لكفّة على أُخرى ...

انهملت تلك الدموع عند تذكر تلك الأحداث التي أُرّخت بين مسيرة الدمعة والدمعة ، على ذلك الوجه الذي اشتقّ مغزاه من عنوان الجمال الإلهي، وتفتّحت خروقه تتشرب الدّموع الفاضلة وتبقي الدموع الكاذبة ، واشتدّ عليّ ناموس الذكريات ، وانحاز إلى ما دون ذلك ليكمل ما كان بصدده، واستهال نجمه حتّى غدوت محاطا بها ، وصارت تجذبني إليها بلا هوادة تقتلعني اقتلاعا من أنشابي وأركاني ، وتشتت فكري أنصافا أربعة ، على تلك الذكريات وتلك الدموع وقلبي وهذه الحال التي أمرّ بها سراعا بلا توقّف ! ..

وهل يدرك المرء معنى تلك الذكريات إذا كانت ممزوجة بالدموع ، أما إنّ الدموع لأنوار ربضت بها الآلام طويلا حتى استحدثتها وأنتجت لها تلك الذكريات التي لطالما أُريد بصاحبها مع تلك الزفرات معنى من معاني الشقاء..

لا يكاد الدّمع يفلت من عين صاحبه إلا وجعل فيها أثرا يدلّ عليه ، علمه من علمه وجهله من جهله ، والدموع تتثبّت بأهداب العين تريد أن تمكّن لنفسها هناك ولكنّ حاجة الأرض للدموع تقف ضد حاجتها ، واستوت الحياة بمعانيها وانشقّ كلّ معنى ينحاز صوب دلالته ، ومضى كلّ شريدٍ يبحث عن ضالته ، واستوفى كلّ شيء في هذه الحياة إلى أصله إلّا تلك الدموع ، فإنها لتكاد تخطو الأرض مسرعة لتعود إلى العين فلا تستطيع ، وتمضي بها الأمنيات ، فتخرج لتتظاهر بها وفي أصلها لو أنطقها الله لقالت بأن الإنسان الآن في أشقى أيام عُمره .. ولكن للسعادة أن تسكن في قلوبٍ ثمّ تتركها مخلّفةً وراءها أحزانا بصورة أفَراحٍ ، وآهاتٍ بصوت ضحكات ! . إنّ الإنسان خُلق حزينا ولا بدّ له أن يحزن ويعلم أن ًالحياة جميعها ما خُلقت إلا لتكون حزنا ، فيضعها في منزلتها الحقّة ، وينزّل لها من طبيعته إلى طبيعتها كلّ شيء بمقدار، بلا زيادة تنقص ، أو نقصان ينفي ، وأن السّعادة ما هي إلا دورة من دوران الأرض حول الشّمس دورة واحدة نسبة إلى عمرها كله ، فوقتٌ واحد، ومعيار محدد ، ينتشي المرءُ زمانا ثمّ يجد تلك الحلاوة وقد فات أجلها!...

ولو أن الجمل خُلق لغير الظّمأ لما استروح الماء ، ولو أن الحيوانات تبثّ لها ما يحزنها وما يفرحها لما كانت حيّة ، فكذاك نحن لو لم نخلق للحزن لما ظهرت لنا أسبابه ، فينظر الإنسان للسعادة وهو في غمرتها فلا يجدها إلا لونا من ألوان الشقاء ، فيقف مع نفسه قليلا وفي نفسه يقول : أنا حزينٌ بثياب سعيد !...

عجبا للمرء ! يكاد قلبه يتفجّر من حربٍ تشبّ بداخله ، ويكاد يستغلق عليها فاه حتى لا تنبعث نيرانها ، ويحول دون عينيه ودون الدموع لئلا يرُى ذلك الحريق عبر ذلك الزجاج ، ويغتمّ لذلك غمّا شديدا ، ثمّ حين يُسأل لا يُجيب ، وحين يُستفسر لا يُصيب ، فيزداد فوق حزنه حزنا ، ويريد أن تخرج الدموع معزية فتأبى عليه عيونه ، فيصبح بين المطلبين يكاد يموت حتفَ أنفه لولا بقيّة من الصبر الجميل .

أومن يتخّذ الدموع وكأنها نجاسة كمن يراها طهارة ؟! ومن يتخّذ الدّموع وكأنها فضلة من الشيطان كمن يراها من ماء الملائكة ؟ هذان أمران شتّان للحقيقة أن يكونا صحيحين ، وسيّان للباطل أن يكونا خاطئين ، فمثل هذا من ذاك كمثل دودة الأرض تمضي الأرض بحياتها تخرق خرقًا ثمّ لا تكون إلا أصفارا أمام ذلك المحراث الكبير ، وهي تحسب نفسها هادمة البنيان، وتختال فوق التراب وطولها لا يعدل خنصر غلام ..

فالدّموعٍ لا تطهر العيون فحسب ، بل تطهّر فيما سواها كلّ شيء رأته نجسا فتمرّ عليه عابرةً تجلو ما وراءها من سواد وحزن ، ثمّ ماذا ؟ ... إنها تطهّر القلوب أيضا بطعم يلفيه المرء كحزّ السيف على مشراط فؤاده ، وعلى نصيف قلبه يكاد يخرج مع أنفاسه المتثاقلة ، ويكاد الدّم يُنضخ على وجه العيون مبطن إيا ها ، وتكاد أوردة القلوب تتقطّع من حزّ تلك الدّموع ، وكلّ هذا والدّمع محتقن في الداخل لا يريد الخروج ! ...

فماذا يجدُ المرء في حياته من معنى السعادة وإنه يرى الأقدار سعيدة ثمّ لا تلبث أن تجرّ عليه من بأسائها وأحزانها ما كان خارجا عن طور حسبانه ، وماذا يكون في معنى الموت بعد ذلك سوى انقطاع الحزن البرزخيّ عن الحزن الأرضي ، فيستحيل القلب إلى مثلٍ كمثل الحوَّة من الكمتة لولا أن الله يبعث من نوره الوهّاج على ذلك القلب فيصفى ، وينقى حتى يستعدّ لذرف الدّموع!..

يستوعب الحزن جميع ما في الإنسان من فرح ، في حين أن الفرح لا يلبث إلا مرتعدا أمام ذلك الحزن الذي هو مبدأ فناءه ، فهكذا يرى المرء حياته كلّها حزن من حزن ، حتى لو كان الوقت الذي يمضيه أسعد ما تقضي حواسّه في الدّنيا ! ...

فالمرء لا يرى في حياته إلا معانٍ غادية ورائحة ، أو صاعدة ونازلة ، ويصطبر على ذلك اصطبار المقرّ بهلاكه ، فلا يعود عليه صبره شيء من أشياء الحياة ومباهجها .. فيتمنّى في نفسه لو أن الله فرّج بينه وبين الحزن فرجةً لا يستطيع خلالها إليه سبيلا ، حتى لكأن روحه منه في مخرج ، وهو منها في مخرج آخر!

ولو أنه نظر إلى أن جهة السعادة لا أثر لها إلا إن كان الحزن حليفا لها من جهة أخرى ، فلا يطعم أبدا معنى من معاني السعادة إذا ما كان الحزن عاملا في إبطالها حينا من الزّمن .. فعلى المرء أن يصبر على حقيقة الحزن ليعرف معنى من السعادة الزّائفة ، تلك التي تنقلب إلى ألمٍ يقاسيه المرء كلّما همّت حياته أن تطيب وأن تسيغ ،

والألم منهما ، وسطا ينحاز إلى السعادة إذا كان الحزن غالبا ، وينحاز إلى الحزن إذا كانت السّعادة عارمة ، والألم في معناه لا يتعدّى أن يكون طعنا في أساس الجسم تُلفي معناه في قلبك ، حتى وإن لم يتأذّ الجسم بتوعّك أو تشوّه ، فسيلقى ذلك موجودا على لوحة القلب لونا يغشاه سواد واحمرار ، فكأنهما معا من ذلك المغزى في ظلام ودم ! ...

والهفا على ذلك القلب المجروح البائس ألا ليته من الدّمع ذاك يحزن كحزننا نحن أصحاب القلوب ، أيا ترى أيبقى هناك صامتا لا يخفق بدم ؟ أم يلقي بتلك المهمّة على صاحبه ليعلمه أن ذلك القلب الذي كنت لطالما في حاجته ، ألا ترى له يوما حاجةٌ إليك ؟ .. وأسفا على تلك القلوب التي ستسقى غما وكدرا ! وما العذاب في ذلك القلب المعذّب ، فهل سيذهب بعضه ببعض ؟ أم أن القلب المتصبّر على ذلك العذاب فوقه العذاب حتى كأنه معنى من معاني جهنّم ! .. فما لتصعّد الأنفاس لا تجدي مع تلك القلوب ، فيأخذ المرء شهقة من السماء حتى تعتدّ تلك هي زفرة الموت ، ثم لا تلبث أن تموت تلك الأنفاس العنيفة في لجّة ذلك القلب الأسود .. ما لذلك القلب وما لتلك القوانين ، ألا دعوه للأقدار الرّحيمة تقلبه برحمتها ! وما لتلك العداوات برزن الآن على القلب منفردا كاسفا ؟ ... ليت القلب يكون من السعادة في مكان ، كما يكون العيش من الحزن في مكان ! ..

۞۞۞۞

قال : أولا ترى الحياة سُخْفا ولهوا ولعبا ودموعا ؟!

قلت : لقد أتيت بكلّ شيء على خطئه إلا تلك الكلمة ..

قال : لماذا ينبغي لها أن تكون صحيحة وما سواها خطأ ، وإنه لأجدر أن تكون خطأ وما سواها حقيقة .. أفلا ترى معي أن الحياة تقضي وتمضي إلا الدّموع ، فما أبأسها إذا من حياة تلك التي تخلّف دموعا ..

قلت : إن الحياة تمضي ولا تبقى إلا الدموع ، فلماذا لا تبقي لك أثرا ينوح عليك إذا قضيتَ من هذه الحياة ، وحُدت عن مبآدئها ومعانيها، أ هذا خير أم أن يبقى ذكرك محفوظا في جسدك لا يعلم من خبره إلا الله ، وإني لقائل لك : إن الحياة التي تخلفك دمعا ، خير من التي تبكيك بلا دموع ! ..

قال : ألا ترى أن في كلتا الحياتين دموع ؟! فذي آية أن المرء يرى حياته وكأنه قطعة من جهنّم ..

قلت : ولكنّ جهنم الحياة ليست كجهنم الآخرة ، فالأولى من الثانية كجنة عرضها السماوات والأرض ، أفأنت تحمّل نفسك ما لا تطيق ؟!

قال : ما لي أراك ترغّبني في الحياة ؟ وإنني والله لا أنظر إليها إلا كأنها ومضة أشار بها القمر ثمّ طُمست فلا أرى لها بريقا ولا أسمع لها رعدا ..

قلت : فتلك هي والله منزلتها التي أنزلت ، أو تحسبني أرى غير ذلك ؟! ولكن مما يجدر بالمرء أن يبتسم بسمة السخرية والضعف في هذه الدّنيا ، وألا يحمّلها بما هي ليست كذلك ...

قال : والذكريات المحزنة ؟ أتراها كما تقول أنت ؟!

قلت : لعمري إن الذكريات المحزنة لأشد وضاءة من المفرحة ، فأنت تنظر إليها بعين الحسرة والشفقة ، وتتمنّى أن ترجع تلك اللحظات فتحسن التصرّف فيما أسأت ، وهكذا ترى الحياة جميعها لحظات يجب عليك إصلاحها لا إبطالها .. وإنك تراها بعين أخرى ، وتلك العين هي عين أخذ الحكمة والدليل على أن ذلك الخطأ كان يجب أن يحدث لتوجد الحكمة ، ولو أنها لم تحدث لما أصبحت هناك عظة ولا حكمة ، فكذلك كلّ ما تسمع من هذا القبيل فإنما هي أخطاء قضت ثمّ تبيّن ما سواها هو الصحيح ! ..

قال : فذاك مذهبك ؟

قلت : إنه ليس مذهبا يسير عليه واحد ومائة وألف ، بل هي سُنّة نعيشها نحن ومن بعدنا ...

قال : ولكنّ الدّموع أيها العزيز ماء منهمل ، فمن أين أتيت له بهذه المعجزات ؟

قلت : وهل في معنى الإنهمال إلا معجزة تكاد تتبصّر بها العقول الحائرة..

قال : الدّمع ماء نصفه من الجنة ، ونصفه من النار ..

قلت : وإن كان الدمع ماءً من الجنة والنار فهناك ماء من الخير والشرّ ، ألا ترى لهذه الدموع وهي تخلّف أثراً على جبين ذلك الحزين ؟ وألا ترى الدموع الناشبة على ذلك الأثر فذاك هو ماء الخير والشر ..

قال : وماذا جنيت لنا من هذه الدموع ؟

قلت : إنّ حدّ الدموع يختلف عن حد الحياة ، فالدموع ليست من موادّها تزول بزوالها وتبقى ببقائها ، ألا تسمع نحيب الموتى في القبور ؟ وألا تسمع صياح الملائكة تناجي ربّها ؟ أما رأيت أن الدموع مكان بين الزمانين ، وزمان بين المكانين .. ألا فاعدل عن هذا المنطق وإلا جرفتك سيولها ...

قال : أأصبر على كَبَدِ الحياة مخافة تلك الدموع ؟ فإني لأفضل الموتَ حياةً على أن أحيا ميتا !..

قلت : فهذه أسباب الموت تحيط بك فلماذا لا تحزبك نازلة بقضائك ؟ لولا أن دمعةً في قلبك ترجوها أن تؤجّل نحبك إلى حين آخر ، ودمعة العين مأخوذة من دمعة القلب ، فنجيّهما واحد ، ودعوتهما واحدة ..

قال : قد آلمني حديثك حتى كأن الدموع تحزّ في قلبي فينفجر دما وألما ، ألا ما أطيب طعم الدموع وهي تضحك ! ...

يـا نَـاقِمًا للِدّهْرِ ما لك مَفزِعَـــا ... فاقْفُ الحِـدَاقَ فليْتَ فِيـهَا أَدْمُعَا

قَدَرٌ عَلى الأَحْيَاءِ مَهْمَا يَفعـلُوا ... أَن يَحـزَنُوا وَكَذا القَضَـا قَدْ طوّعا

ذَرفَت عُيُونُ العَاشِقِيْنَ مَـسَاوِئًا ... يَا لَهـفَ ذاك الدَّمع أقفر منبعـا !

بـــادٍ طَـواهُ البؤسُ كُلّ نقيْصَةٍ ... تَغـُــذُو إليهِ فزادَ فيهَـــا مَطمَعَا

فَسَـألْتُهُ : مَا بَالُ قَلبِكَ وَاجِـدًا ... أَفْنَى الحـيَاةَ ضَلالَةً ما قد وعى ؟!

مَا زَالَ يأخـذك الَهوَان بغييـه ... هَلّا أفـَقـْتَ فَكِدْتَ أن تتورّعـا ؟!

فَأَجَـابَ وَالعبَراتُ تَسقُطُ حرقة: ... "مَـا لِـيْ بِذَاكَ الحـَـالِ أَنْ أتمنّعـا

أنَّى التَفَتّ أَرى بَرِيق حِـــداقِهَا ... حـَـــذرًا بِقَلِبي أن يُلاقِي مَصْرَعا

وَإِذَا اسْتَوَت شَمْسُ الَمغِيبِ كَلالةً ... فِـــإِخَالُ لحظٍ قَد تَكلَّم مُسمِعا

وأرَى بِلَونِ الخَمْرِ حُمْرَةَ خدّهَـــا ... أَتَرشّـفُ الإِهـوَانَ مِن قَلبِي نعى!

أَجدُ الطّرِيقَ وَمسْلكٌ لِيَ دَائِـــمٌ ... وَلقَـد وددِتُ لقلْبِ تِلـكَ المنزعا

فَلعلّ هَذا الدَّمـعَ يَرقَعُ خيبــــةً ... حُكـــمَ الفؤَادُ بِحبّهَـا أَن يقلعا

سَلنِي بِدَاءِ الحُبّ أَعرِف سُــؤلَه ... لَكـِن لِغَيرِ الــدّاءِ؛كي أتجـرّعا !

حزن قلوب العشق والهفا لهـــا ... متمـــنعا طورا وطورا مـانـعـا"

فَتَنهَّـدتْ شرَّا كَذَاك مَصِيرُهُـــا ... سَـاءَ الُمحبّ وَبئْـسَ مَـا قَد روّعا

۞۞۞۞

الباب الثاني

دمعة مترقرقة

ما عسى أن تفعل تلك العين الظامئة التي أغرقتها لجة الدموع ، وارتاعت مما يلاقيه هذا القلب من نزوات وغمزات ، فيطوش بدماء تنفضه ثم تكون دموعا لهذه العين .. أوّاه ، لقد جهدت هذه العين وتدأبّت ، ولقد أحزنها قلب سليق عارض لكل ألم وكل حزن وكل شوق ! .. لقد حزنت حزنا ما يكون القلب معه إلا بلدا خاويا زأرت فيه العواصف حتى أصبحتَ لا ترى شيئا ، وإنما ترى كل شيء ، أو يكون زهرة مرّت عليها أيام ثم لا يلبث أن تكون منها ، فتراها وردة ولكنّ عبيرها نفث ، وترى أصلها ولكنّه غائر في أرض موتها لا أرض حياتها ، وترى لها غصنا ميّادا ولكنه فنن شر يسري لها بكل طائر ذي نفس خبيثة ، أو تظنه عقلا مادت به أفكار الجنون ونوازع الخرق فأصبح هترا لا يعرف من معنى الحياة إلا أنها طارد يبغيه ، ومن معنى الأحياء إلا فرائس هو يبغيها ! .. يحزن القلب ويتأد به الحزن فتغتم له العين .. ولكن خفقة من قلب مجروح بدم ، إلى عين مغرورقة بدمع تلك هي السعادة بجميع أسبابها ومعانيها ! فما أحزن العين إلا حزن القلب ، وما دمعت إلا لأن القلب نزف !

تصل الدموع تلك أسباب الحياة إلى أسباب الموت ، وتجمع شيئا من السعادة في شيء من الحزن ، وتأتي ببعض راحة في بعضٍ من الألم ..! إن رأيت عينا لا تدمع فاعلم بأن القلب لا يحزن ، وإذا رأيت عينا ثقيلها دمع وهيّنها دمع فاعلم بأن قلبا وراءها فيه من الألم والكدر ما في هذه العين من الدموع ، وتراها وهي تسقط كأنما انقشعت سحابة من الضوء عن داجر من الظلام ، أو زالت بهجة من القلب كانت ساترا فوق هجير فيّاح ، أو كذبة غابت عن ذلك العذر من القلب لما ذُرفِت تلك الدموع من تلك العين ! . واعلم إن رأيت دمعة مترقرقة تخشى مضيا ولا تريد القهقرى ، أو أنها راسخة قدم بين حقيقة وخيال ، بل لعلها بين حزن وسعادة . أو بين ليل ونهار فتلك دمعة لها من القلب والألم والدم ، والعين والحزن والدمع ، ما لها من الحياة ووصبها ، والجنة وسعادتها ، ومهما انتشلت لها من نفسك معانٍ فلن تبسط يدا في فهمها ما دمت وقلبك في غنى عن دمعة مترقرقة ! ..

لقد كانت قمرا مضيئا ترى في أشعته شموسا مهتاجة ، وتنظر في شكله فلك الحياة أجمع ، ويجمع لك كل شيء في نفسه إلى كل شيء في نفسك فكلما نظرت إليه بنصف أسود ونصف أبيض فتلك الدمعة ليل ونهار ... عالق في قرص الشمس يدور عليه يجمع من جهاته ، ويحبسه بأغلال من الضوء الموهوم ، أو ينهض له بلهب يتقاذف منه فما يرى ذلك القمر إلا نسمات عليه سراعا من تلك الشمس الهائمة ، بل

يرى منها وليست ترى منه ، فستنظر إليه في تيه على تلك الشمس حينما يحجب ضوءا منها إلى ضوء منه إلى نور لتلك الأرض التي تقف دونهما وهما يتنازعان . فهذه معان لتلك الدمعة المترقرقة التي لمعت من عناصر السماء إلى أخلاط الأرض ، ومن مادة سوية إلى مادة مختلة ! .. في فورانها تفلّ على ذلك القلب بأنواع من الهموم والمقاصد التي لا تبغي من ورائها إلا قلبا له من معاني الألم ، ما له من معاني الخفق ! .. بل لعلها تريده أن يخفق ألما ؟ فليخفق ، أو تبغي منه دما كما يكون من دم جيفة تتهاوى بين الموت والقبر ؟ فليكن ، أو حتى تريده قبضة بقدر ما في الأرض من حزن وألم تقبضه فإذا هو كفُلقة من الموت؟ فذاك وما تريد .. ولكنه سيبقى قلبا كل ما فيه ، هو بعض مما فيها !

ماذا في كفكفة الدموع غير موت القلب ، وماذا في موت القلب غير موت النفس؟! .. أو عندما يفقد الإنسان بصرا يفقد قلبا ، بل لعله إلى بصره أقرب منه إلى قلبه فذلك موضع الحزن والألم ، وهل في رمدٍ تُصاب به دمعة ضربة يهاب لها القلب وينضب في سبيلها الدم ..

۞۞۞۞

أرأيت أنا دمعا ؟! بل رأيت نارا وماء ، فيها لهيب يحترق وبردٌ يشذو ، بل رأيت حياة وموت فيهما من صروف الأقدار ما في هذه العين من الدمع المحتقن ، بل ما رأيت إلا إنسانا فيه شيئان يذهبان به ويأتيان ، ثم هو من تلك الدمعة في حياة أو قضاء ، بل في سعادة أو هناء ! .. أتراها كانت عينا تلك التي ترقرقت فيها أدمع جُشب ، أم كانت علم فلك فيها حزن فذاك هو الفضاء ، وفيها فتور فتلك هي أنجمها ، وفيها دموع فتلك أشلاء القمر ! .. أو أحسب دما ذلك الدم ؟ لعمري ما له من الدم إلا حمرة ثم زرقة ثم سواد ، ولكنه منه وما فيه ألم استحال مدامة لونها أحمر ثم أحمر ثم أحمر ، تجترئ عليه العين بشيء من دمعها فيجترئ عليها بشيء من النشوة ، ثم هما في حزن وألم من ذلك البطر ! ..

في كل شيء يقول لك قلبك استفتني ! .. ولئن كان فيك من الحيرة هكذا، ففيّ من اليقين ما خفي عنك . أنا أعلم أن فيه من علم الفتوى ما فيه من علم السعادة ، ذلك وهذا ينتدبان له بطرف من الحقيقة ثم برمز من الواقع ثم شيء من الجمال ! فيحسب أنه قد جمع العلم من أصل العقل ، ثم من مبتدأ الفهم إلى منطق التفكير ! .. إنه ليس له من التفكير إلا حزن فلينشغل بتكميده عن علم لا يعلم معه أين هو منه . فإن يرد علما فليرجو من تلك العين فهي علم في بعضها وعلم في جميعها . ترى بين ألحاظها وأهدابها أذرعا لمجرة الدموع ، وترى في حداقها لبنة من جميع الأرض فوق مستقر من بعض السماء ... أهذا علم كعلم ذلك القلب ؟ .. ويكون لبعض علمه شرح وتمحيص وتدقيق ولكني أرى له شعرا يملأ عليه جوانبه ثم لا يكون إلا نهبا تصطاده المعاني والكلمات من جنب إلى جنب ، أو تهوي به بلاغة إلى درك السقوط فذاك حظ القلوب ! ..

أتكون تلك العين ضنينة على دمع بالخروج ؟ .. أتدري أيها القلب ما ابتسامة تلك العين التي هي كالقبر في جوفه ميت في جوفه قلب صار رميما ، كذلك لها ابتسامة كابتسامة نحل حينما يلثم زهرا فيزجيه شهدا ، أو كابتسامة طير له عدو ضعيف ، فما تكون له ابتسامة إلا حينما يجد نبتا أضعف منه عدوا ، ألا ترى ضحك العيون ضحك الحياة ؟ وفي تلك الدمعة المترقرقة ضحك له خوار ، وقهقهة لها صدى تمتلئ له جوانب القلوب والعقول ، ولها أيضا حزنا له وقع كما وقع قطرات الماء على صخرة جوفاء صلدة ، لا تأتي على شيء منها إلا مع زمن ، فإذا كان زمن بلا دمع فتلك حياة للصخرة ، وإذا كانت دموعا وما لها من الزمن شيء فيا لحظها ، سعدت وجدّت ! ..

أو ترى ائتلافا بين عين تجري بحزن وأخرى تجري بماء فيه حياة الأرض وما عليها ؟! بل لعلك تقول : بكاء هذه بعض من بكاء تلك ! ... ولكني أقول : بكاء لها فيه ألم وحسرة وضيق ، وبكاءٌ لها حياة ومنفعة وريّ .. فهذه تبكي على عطش ، وتلك تبكي على حزن ، وهذه تدمع على موت وتلك تدمع لذكرى ، وهذه تسيل ما فيها لقحط، وتلك لشوق !... أو ترى الإنسان عندما يُحرم حياة وريا وخصبا ، كما الذي يُحرم حزنا وذكرى وشوقا ؟! .. فإن أبكي فما لبكائي إلا معنى أو شكلا أو تعليلا ، كل ذلك تجده في كلمة لها وقعان ، وتجدها كلمتان في قلبك إن نطقت بهن شعرا ، وحديثا إلى عقلك ما ذكرته فكرا ، ودمعا لعينيك ما أنبستهما علما ... أو تعرفها ؟ إنهما : دمعة مترقرقة ! ..

لما رأيتها متذبذبة لا تهدأ أو ترعوي ، ما تريد إلا خروجا أو رجوعا ، وما سرّها أن تكون مؤصدة دونها الأبواب أو مغلقة من وراءها الأهداب ! ستراها كالطير المقيّدة أغلاله بالأغلال يحاول نفاذا إلى حرية أو فناء ، وينشد نشيد الحديد كي تتحلل دونه الموانع تلك ، أو تراها كرعشة من نفس ما تدري أذلك من حزن أم من سعادة ، وكلما يخطئ العقل في فهمها تقول : ليس على الأرض ألم وبهجة ؟ فإما موت أو حياة! أو تراها رقية على ذلك القلب المستهتر فإما نفذة منه إليها ، أو لعنة منه عليها ! ..

إن غمست عقلك في وعاء فيه علم ثم أخرجته في خبته تجني من بعده فكرا ، وإن غمست قلبك في وعاء فيه حزن ثم أخرجته فأتيت عليه فتلك مرثية لم يجوّد مثلها ، وإن غمست عينا في بحر من الدموع ثم أخرجتها فملكت عقدها كانت دمعة واحدة مترقرقة .. ! أتعلم حينما تجمع فكر عقل ، وحزن قلب ، ودمع عين ماذا تجني من ذلك ؟ .. لست تعلم ذلك إلا عندما تعلم ما الذي يجري عليه الزرع من ذلك الغيث السماوي ، والغيث الأصفر والغيث الأرضي !

بل لقد تخال تلك الدمعة في عينها نواةً ناشبة في قلب ثمرتها ، فنبتت بها أصلا فكانت هي نزعه ، وازدهت به شكلا فكانت هي بهجته ، واستطابت به طعما فكانت هي حلاوته .. نبتت تلك الثمرة ونواتها من مشاعر جياشة زهد بها القلب فطرحها رحمة لتلك العين ، وسُقيت بنضخ من هذا النسيم الذي يحمل الفيء بين ألحاظه ،

وتَربَتْ في محجر كانت مرآة ذلك القلب ! .. مفهوم عام وآخر خاص تجري عليه تلك الدموع ، فتجد تلك الدموع البائسة إلى منطق كلما حزبها حازب ، وإلى آخر كلما طرق عليها من شؤون همها طارق، وتنزع إلى عامّها ما يعمّ من شقاءها لتلك العين وذلك القلب ومعه العقل ، وخاصّها ما يكون همها ترقرقا داخلها ، يستدعي لها ألما وتقدم أواخره ! ويسري لها بخبث ويعطي ثوابه ، وينزوي عليها بحزن ويمثل السعادة عارمة صوب وجهها .. أيّ حزن هذا ؟ بل أيّ دمعة هذه ؟ بل أي إنسان هذا؟ ..

أتعلم ما يُبهج من قد تدثّرت بالثرى عظامهم ، أو غارت فوق اللهيب أجسادهم ؟ لعلّك تدري سعادتهم و هم يتنازعون وحدةً ؟ . إن تلك الدموع هي ... هي سعادتهم وهناءهم ومنتهى غبطتهم التي يشتاقون لها ، كما ترى من سعادة الأحياء بسمة من ثغر نافقة ترى فوقها ذرات من الصفاء والوداد..! وإن المرء ليتكلف بالحسن مشقة ويفتعل بالجيد جهدا ثم لا يكون إلا قبضا من الدنيا زائف ، ومَيرًا من الحياة زائل .. وترى إلى الذي استخار في شأنه عوامل الأرض والسماء ووكل لها أمره ، و هو بعد في راحة عارمة ، ويرى كيف ينفذ له من المتين ما لا ينفذ لصاحب الجهد من جهده ، فهكذا ترى دمعة مترقرقة ثم بسنة نافقة ، كأنك ترى حزنا سعيدا ، وسعادة حزينة !

إن في تلك الدمعة لما رأيتها لذكرى تعود بي وأعود بها ، أكانت هذه الدمعة هناك يومها ؟ .. ويحك أيها القلب الدّهيّ لا تركن إذا ما انهملت فوق آكامك هذه الدموع، و ما تبقي من شيء إلا رددته فيها وجعلته فيك ، أعطني ذكرى أعطك دمعا ، أو أعطني حنينا أعطك سعادة ، أو أعطني شوقا أعطك ضحكة ! ما لي من هذه الحياة إلا ماض ، ولا من هذه الأيام إلا يوما ، ولا من هذه الذكريات إلا ...دمعة ! أتعلم يا ذا الملامة ما كان من سحر هاروت أن ينفث به على قلب فيجعله صخرة ، أو يرمي برقية على عقل ليجعله فدما، ولا على هذا اللسان لينزل له منزل الوشي والكذب ، بل من سحر الدموع أن تُسكب على القلب والعقل واللسان فتجعلهم عبادة تبتهل بها الطبيعة كلما أرادت ـ كما يقولون ـ غضبا ! ...

أيتها الذكرى ، إنك بين أصابعي قلم ، وبين عينيّ دمع ، وبين قلبي وعقلي حنين وشوق ! لا تدعي غمطا منك عليّ يجعلني في قيادك كالمسلول ، فهذا ما اعتاد سلطانك على ذوي القلوب العييّة والذاهلة ، أمّا قلبي فإنه معجزة إذا ما انحلت في أحلامك ، فأنت لي وأنا لك ، وكلانا على القلوب نمشي وبين آلامها نتفيأ ، فلا تجعلي سائغا منك مرا على دموعي ... فإنها دموع غالية ! ..

أو تعلمين طفحت المشاعر كلما امتلأت العيون والقلوب بها ، ساعتئذ لا مناص للمرء إلا أن يجد ثغرا من الأحزان يعتصم به ، أو ينتبذ إلى مفحص من الألم ، أو يطرق باب بيت له سقف من ضلوع القلوب ، وأبواب من آلامها ونافذة واحدة ... من تلك الدمعة المترقرقة ، يلجأ إليها من شوق يحبط به ثم لا يكون له بعدها قيامة ! .. أو تعلمين أن في امرئ يعجز بالذكريات ويعيل ، أو يُسرف في جهد جهيد حتى يصبح

عرضا لكل سهم من سهام الدهر ، فما يلبث إلا جسدا ممزقا ، وقلبا خائبا ، أو دمعا مترقرقا ! .. كذاك يا عمرا أنت الآن في هذه الدنيا وأنا فيك ، لا تذد عن ذكرى ترجع الأمل وتشفي العلل ، فإني لمشتاق إلى أهل ووطن وحنين ، فالتكن هذه الدموع وقودا، أو حتى رشاشا انثره في طريقك كي تعرف سهلها ووعرها ، ومنحدرها من مهدها !

إن القمر لا يحتاج في نوره للشمس ، والزهرة في شهدها للنحل ، ولا العذاب في حدته إلى سياط ، إنها لا تحتاج إلا معانٍ من أشكالها وذواتها لترى في بريق القمر مجرة ، وفي شهد الزهرة طعما وعطراً ، وفي حدة الجلد ... عذابا ونعيما ! ..

آه ثم آه على ذلك الماضي وتلك الذكريات ...

ويا لهف هذه الدمعة المترقرقة إن جفّت ! ....

***

الفصل السابع

النبتة الذاوية

إن في الحزن شيئا من الألم لا تعدو معانيه على أن تكون معاني شقاء أو معاني فناء ، ويمضي في ذلك الحزن كلّ ألم له وقع تعتد منه القلوب وتتقي ، ولعمري أن ما في اتقاء ها إلا زلفى لذلك الألم ! وإن في شيء مهما انتحلت في منطقه ليدور به الحزن حول نفسه في مدار أوله جهد وآخره ندم . وما من شيء أجسر على ذلك الحزن إلا دمعة من عين عن قلب امتلأ الحزن على جميع جوانبه فاستمطرت رحمة فما لبث أن ثاب القلب ، وابتعد ذلك الحزن أشد البعد مع تلك الدموع ! ..

إنك ترى الحزن على السعيد نعمة ، فما هو من حزن فيه يخرص إلا إلى حزن إليه يشتاق ، وليس له مما في يديه من زيف الحياة إلا رماد انتشله عن نار كانت حربا قد أطبقت عليه فما زال منها يذأر حتى تفتحت له أبواب من الحزن لها وقع تهتز له جماجم الموتى في قبورهم ، تنال منه كل منال ، وهيهات أن يخلص ولا تزال أسبابها تحوم حومة جمعت له الحزن في ثلاث : دمع زائف، وقلب مرتهن ، وموت قريب !

وإني لأرى في الحزن والألم كلدغة الملدوغ ، في كل حين يعتصر عليه الألم حتى يظن أن ما لُدغ إلا في ذات صدره ، ويمضي عليه ذلك الحال وليس به إلا تسلية النفس عنه فإما هو قد أبلّ ، أو قد أثبتت تسويا لتلك اللدغة ! فكذلك الحزن في ألم لإنسان ليس ما يسع إلا كضربة على النفس بأن الدنيا فانية ولا تساوي حزنا منه يضيفه لدولة الحزن وعرش الألم ! فيكون إما سعيد يرح رائحتها و هو في نكبته ، أو يقضي فتلك نهاية كل عمر ! ..

أوّاه حينما ترسو أحزان على قلب امرئ كيف به ينجو منها ، أو أنها كانت كربضة الجبل لا يستطيع معها فرارا إلا إذا قرر موتا ، أو لا يستطيع نجاة إلا إذا أزمع إنفاذ قوته . و هل في الجبل عندما يستوي على الصخور والنجوم و في باطنه نار تجعل تصرّ على بعضها ويقوم بعضها على بعض ، إلا كذلك الحزن على هذا القلب ، أو كتلك الجذوة على هذه الز هرة ! ... وأي ز هرة ؟! هل بقي مع ذلك الحزن لهذا القلب معنى للاسترواح أو الفيء ، وإنما كمعنى النار التي لا تريد إلا مثلها ، فإن لم تكن وقودا ، كانتا اثنتين أمام قلب واحد ! ..

ألا تُلحف يا ذا السعادة في استمرارها ، فما بال ذلك المحزون يريد أن ينسل نفسه منه ، أولا يعلم أن في ما في الحزن ما في السعادة وفوقها جنة الأرض ؟! ... إن الحزن كالنهار الذي اجتمعت في سمطه كل خيالات النور وكل أو هام البصر ، بل كل أحلام الحقيقة ، أو كالدرة التي صُقلت بدمع بارد فأنت ترا ها إنما الاضطرام داخلها ،

وتود لو أن هدما قام عليها فتلك آثار الحزن ..! إن في حزن الحزين كالذي يقرأ صلاة يعلم أولها ولا يعلم آخرها ، فيمضي في استقراء عقله تارة عند موقف يحسبه إمعانا ، وقلبه أخرى في موقف يظنه أنينا ، ولربما استطار به شره فأتى بها على غير حقيقتها ، أو حاد عن مبناها ، فستصبح حينها لعنة عليه ومحقا ، أو على الأقل شكل من أشكال رأسه أصبح شظية من شظايا قلبه !... و هل في ألم المتألم أو صيحة الصائح أو أنة الملهوف إلا بعض من ذلك الحزن ، أو أن الحزن في كل منها له شكل مختلف ، فيأتيك من قلبك إذا ما كان ألما ، ومن صوتك إذا ما كان صيحة فيغدو نجوى ، وإما سكوت عارم في جوفه صرخة عظمى إذا ما كنت ملهوفا ! أو هل يطعم امرئ معنى السعادة من بعيد إذا ما كان الحزن أبعد ! فلا تجديه ابتسامة عاجلة ، ولا فرحة قصيرة ، ولا بهجة زائلة ، وإنما دمعة فليسبلها ولينتظر الأقدار ماذا تفعل ؟! فلعلها تشفق وتعطف ، بل لعلها تخبو خشونتها ويصفى رونقها على ذلك الإنسان ، بل على تلك الدمعة ، بل على ذلك القلب المبتذل !

إن نأمة من قلب مكلوم لهي السعادة كلها ، وإن حشرجة من صدر لهي الضحكات ومسبباتها ! رحماك أيتها القلوب ، فإنك لمراد أمر عاجل وموئل ماثل ، لا نبوة من يد الدهر ولا طيشة من يراع ولا ... ولا مشاعر كاذبة تصدقها القلوب المولهة على كل حزن أنه سعادة . لكنها جمرة ستتقد ثم تلفع ثم تُدمي ثم تخبو ، وفي خبوتها موت ذلك القلب وأأسفاه ذهب بلا رجعة ! أولا نرى في قلوبنا جمرا غير متقد ، ولكنه مستعر من حشايا متألمة ، فأنت لا ترى دخانا أو آجنا وإنما ترى دموعا ، بل ترى حزنا .

ما رأيت قط إنسانا يقسم بسمع أو بصر إلا أيقنت ألا سمع لديه ولا بصر ! بل لعلّه حانث في أليته التي استنزف بها ماء وجهه . فكذلك ترى الذين يزعمون سعدا ، أما كان منهم إلا قليلا من سطوة الأقدار الرحيمة حتى ينزعوا على تلك السعادة بكل كلمة مقذعة ! ولكن عذره أن مع الحزن ألما لا يستطيع له مناوأة إلا غمغمة في وجهه فإذ به ينفر من أمامه ، ويرى في كل حزن برقا والألم رعده ، أو كأنه سوط والألم أثره، أو حتى هجيرا واللفح معناه ! .. فلتصبر على حدّة سوط كي تشعر بعده راحة ، أولا تصبر فلتمضي إذا حياتك هائما على وجهك لا يدور معك في مسيرك إلا حزن ، وإن خلته يوما جنة عرضها السموات والأرض ! ..

إنني أرى في جميع مخلوقات الأرض رواسي حزن عليها ، ما تزال تثبت معانٍ حتى تكون منطقا تسير عليه الأرض في فلكها ، فما تملك إلا أن تهوي إلى القمر لتعلمه من نوره أن ذلك الحزن ، ومن بهائه أنه ذلك الألم ، وأي ألم ؟! أألم منه لها على نور ينفثه من قلب مرتهن يسوغ مرارة الوحدة في الفضاء الرحب ، أم أنه ألم منه عليها في فلك يدور به حولها فينزوي عليه وتلوّى وودّ لو أنه انتهى إلى فلك يسبح به قصيا عن مثار الحزن .. أي تلك الأرض !

يا لهف تلك النبتة قد ذوت أغصانها ، واربدّت أوراقها ، فأنت تراها في هيئة فما تحسبها إلا من أصل الجحيم ، أو تخالها ماردا استحال إلى شجرة ذات أعواد وأوراق هما رمز شر وعلامة خبّه ! وتنظر إليها بطولها وكأنها حبل منتصب للأعلى ، بين كل ذراع وآخر عقدة لا تستكمل الصعود إلا عليها ، ولكن العقدة هي عينها التي تهوي بك في أسافل الدنو ، أو تخسف بك السماء فإن بها سماء قبر وأنت أنت جسم ميت ! أو كأنها فقاعة استعلت على النبيذ ولا يزال فيها شيء مما هو منه ، بل لعلها خلاصته إذا قُرعت الكؤوس وأنت ترى على انعكاسها حمرة فتلك هي النشوة ، ثم إذا ما قضت كانت نهايتها كما بدأت ، فوق رؤوس الشياطين و هم مخمورون مذهوب بعقولهم ..! آهٍ على تلك الأوراق قد خُلقت ثم صُقلت ثم تفتقت ثم تقرحت ، ولو رأيتها لرأيت صخرة عاتية قد استوت ، ثم في استوائها شقوق غائرة ، أو كأنها صفحة صفراء من دمع الشمس كانت لهيبا يتضرم ثم هي ورقة تحتضر ، فكانت غبوقتها شعلة كاوية فما تكون صبوحتها ؟! لقد كانت شمسا أخرى ، بل أنت تراها الآن طرسا من الموت تقرأ عليه : يا سماء كانت دخانا ، ويا أرضا كانت لهيبا ، ويا نبتة كانت شعلة مفعمة ما ترون ؟! إنكم ترون رمادا حثيثا للريح من كل جانب ، ولو سألتموني شيئا لقلت : قد آن لهذا الرماد أن يعود نارا ، ولكنها نار كبرد الدموع ! ... ولن ترى ذروة ذبولها وعلامة ذويانها إلا إذا رأيت ساقا ممدودا ، قد تحنّط تخاله عمرا واجما إلى السماء ينتظر قبضا من تلك اليد ، أو تظنه روحا من الأرض تستسقي روحا من السماء بماء كي تُعجل في استيفاء طرف من حقيقة كانت تظنها كذلك ، فأما الآن فهي تخاله قطرات من معنى الموت قد نفضه عليه لينزع روحا قبل وداعها جسدها ! بل قبل القول باجتثاث النبتة ..

إن هذه النبتة كالشمعة في خبوتها ، ما تزال كلما استعرت ذبالتها تحدّر قطرات هي عمرها التي تعيش منه ، بل هي نفثات الروح فيها تتهدّل الآن عن وجهها إلى مرقدها ! وكلما أضويت منها زدت في مساحة قبرها ثم ... ثم موت به تنقطع الشمعة المسكينة عن النور ، بل ينقطع النور عنها ، ولكنهما معا ينقطعان عن حياة كانت لهما إلى حياة هما صارا لها ! فكذلك تلك النبتة ، في كل يوم من حياتها أيام من موتها ، وفي كل قطرة من بقائها فيض من فنائها ، وفي كل نسمة من شذاها هبوب من عاصفة كيرها . يا ليتها كانت شجرة كباقي شجرات الأرض ، إذا كان في الأرض شجرات وإنما هن رواس للحزن عليها ، كما الجبال رواسي ثبوتها ، أما وإنها تريد سعادة ولكنها فاتت، وتريد هناء ولكنه مضى ، فتُجهد في ترويض نفسها على عودتها وتستميت في ذلك حتى تخور عزيمتها وتكبو قوتها ، فتراها ثانية كما رأيتها أولا ، كما سوف تراها كل حين ! ..

فاستمليت أمرا كان عليّ قسرا ، ودنوت منها فحنت على نفسها والتفت على بعضها ، فقلت : أيا شجرة كنت حياة ، ما بالك حياة إلى موت ، ثم موت إلى رماد ؟! فعندما سمعت كلمة مني أخرجت فرعا من نفسها ثم قالت : انظر أيها السائل ، هكذا

استشرى فيّ داء الموت ، فقلت : وما تلك الوفاة بالتي عهدت أمثالك عليها ! ، فقالت: إنني أموت ألما لا عمرا ، وأموت حزنا لا حياة . وفي كل ومضة أراها على التراب من تلك السماء أوقن بأن قد توفيت عمري وها هي ذي المنية أقدمت ! فقلت: أو ألم ذاك كألمكم معشر النبات ؟ ، فأفرجت عن بسمة هازئة ثم قالت : أألم هذا أنا فيه تعدونه من آلام غيري ! ولكنه ألم من حنين وشوق قد أفنى ما أبقيت من حياتي ، بل لعلّ لي أجلا أخرا غير أجلي ، فلا عليّ من شوق انتهك ثم نزق بي ، ولكني كلما أراه يفتعل بي ما يريد أجد في نفسي راحة وفي قلبي طمأنينة ! إن الألم شيء من أشياء ، وأشياء في شيء ، ولعمري قد اجتمع فيّ الألم بأسبابه وأواخره حتى ما بقي من عتب الدّهر عليّ سوى معول يجري بساقي فإذا أنا طريحة لموقد . أتعلم من الألم سوى أنه قارعة المرء التي لا يخاف من غيرها ، أو أنه الضوء الذي إذا شوهد قرينا بظلام فذلك الظلام هو نوركم ، أو أنه أرجوزة حياة دائمة فتحيدوا إلى قصيدة رثاء عليه .. إن المتألم لا يخشى غيلة ولا طائشة ، فهو يرى في نفسه أن صفة الحياة به ، فلا صفة في الحياة من تلك التي من الجنة ، فإذا كان سعيدا طمع في حزن ، وإذا كان صحيحا اشتهى علّة تريحه من خوف أو عرض ، وإذا كان آمنا تمنّى خوفا يجمع له جهنم بمعناها وشكلها إلى معنى حياته وشكلها . وكذلك المتألم يحسب حياته ذهبا إذا امتلكه خاف فواته ، فإذ به يجتهد في حفظه ولكن يدا ناشلة تعالجه فيصبح في يد غيره، ويصبح هو في يد القبر !.. أنت تخاف الألم ؟ ولكنك برمتك ألم على نفسك ، بل أنت داء في جسمك وحزن في قلبك . إذا ما سمعت شيئا قلت احفظ ما لديّ ، وكلما رأيت آخر قلت اكلأ ما بين يدي ، ألا فاعدل وإلا استمررت على نفسك موتا لا يلبث يذرع في جسمك حتى يسويّه فتات ، فلا يبقى من معاني الرميم في قبرك شيئا ! واعلم أن ألما فيك اليوم هو صحة لك غدا ، إذا كان هناك غد ! .. ، ألا تراني بأغصاني كأني حبيسة أغلال تستجرني إلى الأرض التي جئت منها كي أعود إليها ، هذا هو ألمي ولكن لست مما أبث لك عنه ! .. أنت ترى في حديثي لك معضلة ، ولكنني أرى في ألمي لنفسي معجزة ، بل هي من خوارق المألوف ! فإن أردت حنينا كحنيني فاجعل من نفسك نبتة ثم لا تنعقد إذا ما ذوى من طرفٍ لك ذاوٍ فإنما الحنين يعيدك إلى ما كنت عليه في سابقك ، وإذا أردت شوقا كشوقي فاجعل من نفسك فرعا تمد أوله في حياتك التي هي طريق موتك ، وتمد آخره بموتك الذي هو طريق قبرك ، أما إذا أردت ألما كألمي فاجعل من ذراعيك فننين ثم احبسهما ثم الوهما ، واجعل من قوامك ساقا كساق الضوء في كفن الشمس ثم ارفع وقل : هذا أنا ، ألم ليس كمثله ألم .. !

أنت تراني شجرة ذاوية الأغصان ، ولكنني أرى نفسي حزنا في حنين ، وتراني جثة لتراب فوق تراب ، ولكنني أرى نفسي ألما يشوبه شوق ، وتراني خيالا واجما ينتظر لطمة من حقيقة ثم عريكا من صواب ، ولكنني أرى نفسي ذكريات فيها حنين وشوق وحزن وألم ! .. وما علمت من طير استروح غصنا من أغصاني إلا طيرا كتلك التي تشبه الأرواح الواصلة سببها بأسباب الطيور الأخرى ، وما شدا منهم عليّ إلا

أيقنت أنها أنشودة الموت والفناء ! ولكن كيف به لو عشش ثم رفرف ، فإنها لحياة لي مع كل طائر تُخلق ببقائه وتنتهي بذهابه ..! أوّاه ، لقد أثقلتني الآلام والأحزان حتى عرفت في نفسي أنني لا أعرف ما طعم الراحة أو السعادة ، أوّاه لو أنني كباقي الشجر أو حتى عشبها الزائد ، لكنت الآن مورقة يانعة لا تبصر فيها إلا آثار رحمة الله على عباده يريهم شكل هذه الأغصان وهذه الأوراق وهذه الشجرة !..

وليست معرّة من الدهر عليّ أنني ذاوية ، فيكفيني شوق لي وحنين فذاك منتهى طلبي . بل إن قلبي جوف خاو إلا من أمنيات ، لا أسمح للحياة إلا بنظرة واحدة ثم أغلق عليها ، فتلك هي أشواقي التي تنبثق منها حياتي ! . فقلت : أولي بشيء من ماضيك وذكرياتك ؟ فإني لا أملك إلا سؤالا وعليه منك جواب ، ولعلك تجدين قلبا ثانيا لحزنك ، أو عينا أخرى لدموعك !.. فأحجمت ثم قالت : إنني من الماضي كهذه الغيمة من تلك السماء ، ما تزال تسبح فيها بل وهي مجمع مادتها التي لولاها لم تكن . قد كانت ثلاثة ألوان لأوراقي ، منها الأخضر كمادة الجنة في الأرض ، ومنها الأحمر كلوعة المهتاج، ومنها الأصفر بقية روح الشمس التي اغتذي منها ! وويل لي بعد انقضاء تلك الألوان فحسبي لون الرماد تزهو به أوراقي ، تلك كانت بقية عجاجة مستعرة حازمة بقلبي وجسمي ! .. غضة طرية ، ناعمة حافية ، لا ترى في شيء مني إذا أردت إلا أن تجد بعضا من الطبيعة التي أنا لها وهي مني . فإذا أبصرت ثمرة أبصرت وردة جذورها لا تفتأ تنحر كل معانية الموت والفناء ، وليس أجمل ما فيها إلا أنك تطعم منها فإذا بطعمها كأنه يد لمست على أعذب وتر من قلبك ، فأنت تراها بعد عازفا بارعا ! .. كذا كنت وكذا غدوت ، ليس بيني وبين الموت جُنّة تستطيع ردي أو أتقي بها منه ، وسوف تراني قليلا كطائر البجع ، يجهد نفسه بالصبر والتصبر على الطيران ثم لا يكون موئله إلا حوض نسر ، أو حياض سبع ، ومضت عزيمة له عزيمة عليه ، وصبر لخير صبر لشر ، ومكابدة لفلاح مكابدة لشؤم ! .. وإني سأبقي صبورة علّي أجد محفلا خيرا من محفل أترابي ، فيا ليتني خُلقت شجرة فرعاء لا تعدو إلا معنى الاستواء ثم الانقضاء ، ويا ليتني صدفة حكى التاريخ بها مرة ثم نساها ، أو حكت عن التاريخ وضيّعته ! ..

أيا حياة لي غدت موتا عليّ ، بل يا شقاوة عشتها خلتها سعادة أنغمس فيها ، أين ذلك الماضي وتلك الذكريات ؟! ، ولن تُصيب في طباعي إلا حنين وشوق لتلك الذكريات ولذلك الماضي . حتى لو أمضّني وأضناني ، فإني لأهوى الحب إن كان فيما ينخرط في طباعي .. لست أدري أكانت تلك تعويذة نبذتها أو زجل ارتجلته ، فكل همّي وقت أمضيه هنا بهذا الألم ، لأنتقل بعده لعمر فيه ذكريات رهينة طيّعة ، ما أنبس بنبسة إلا وألواني في كل روضة ، وأماني لهن كل كوكب دريّ ! .

اللهم منك الرحمة والعطف ، اجعل من قلبي زهرة فوّاحة كي يعطي مع كل نبضة عبيرا ، واجعل من غصني فرعا بين الآن والماضي لكي يعطي مع كل ومضة خيرا ، واجعل ورقة ذابلة سقطت بعلمك نبتة هي الماضي والحاضر والمستقبل ، واجعل

ذؤابة من أطرافي أكفا ضارعة إليك ، فإني قد طرقت الحياة بابا بابا فلم أجد إلا باب السماء الذي أتيت منه ، كي أرجع منه إليك .. ! اللهم هذا الجمال جمالك ، و هذا البهاء بهاؤك ، وتلك طبيعة صنعتك ، وهذه الجبال خلقك ، وتلك السحب شواهد عظمتك، و هذه السماء رفعتها بأكف داعية مبتهلة من دموع المحبين لك ! اللهم فاجعل ماضيا كنت فيه حاضرا أكن فيه ، واجعل ذكريات عشتها سيرة حياة أحيا بها ، واجعل دهرا انقضى وغبر عمرا طويلا إن لم يكن ههنا ، ولكن ... ولكن في جنتك ! ..

فما كان هذا منها حتى عادت إلى حنوّها وانقباضها ، وعدت أدراجي أخطو خطوات هادئة ، وأقلب النظر بعين ذاهلة ، فذلك روم كل من أراد تمحيص ألم عن قلوب الأحياء ! ....

الفصل الثامن

حيـرة القلـب

ما عاد في القلب وجد لهذه الذكريات التي نزعت عليه آفات من الحنين والألم والحزن ..! لقد استنفذها في تلك الدموع إهوانا لهذا الحزن . ما يكون في وسع قلب تجري عليه بألم فيذبو أو تساوره بشوق فيكبو أن يكون اجتماعا لكل هذه الأشياء كادت أن تعدمه الذكريات من تاريخها ..! يا صروف الدهر أمهلي وترفقي في هذا القلب الضعيف ، واجعلي من نفسك أن الأيام للقلب كالسموم للبدن ، إما لداء عارض فيُبري ، أو لصحة عارمة فيُبلي ، وما من ذلك للقلب فيه شيء . فهو دائم في أحزان تجيء به وتذهب ، وبآهات تخرج في زفرة من الصدر جمعت مآسي البشرية وأصلافها ، حتى غدت الخلائق في حساب قلوبها غربانا ، ما تدلها إلا على حطم الأيام وهدم التاريخ وعثار وعلل في ذكرياتها ...

إذا أردت من الدهر سعادة فلا تنظر في وهج الشمس ولكن انظر في كسوفها ، ولا تنظر في نور القمر بل إلى محاقه ، ولا إلى خضرة المروج بل إلى قحط الفلاة ومحلها، ذاك فيه عوامل تجعل المرء يجد من نفسه اهتياج الشمس و نور القمر وخصب الطبيعة في شكل من حنين وشوق وألم ..! حرتَ أيها القلب فلم تجد مناصا من الأمل ولا من العمل ، وكل ذلك مراده إلى سوء .. ثم إن فيك مذمّة خُلقت منها فحسبتها سؤال عمرك الذي أنت تعيش له ! .. هكذا تحسب في ذلك السداد زعما أنه الخير والرشاد، وطوّحت بك الأحزان في أوهى شزر من الحياة وشؤمها ، ما هذا منك أيها القلب ، بل من كون اسمك قلبا ! ..

لا تظنن في عقل الغراب دليله إلى الدمار ، وإلا في عقل الحمام دليلا في سبيل الرشد ، فإنما عقل الغراب لا يضنى على نفسه من تعب الأيام وجهدها في أن يطوي العمر ين القبور غير آبه بما يحدث من حوله ، وتراه لا يشدو إلا والهياكل مدمرة والأشلاء مبعثرة تحيط به ! .. ولا تخالنّ مذهب الحمام على وجهها في الدهور وقوائمه تعدو بين السماء والأرض ، لا ترجح لكفة على أخرى قد عيلَت بين أناسٍ لا همّ لهم إلا أن يعرفوا مكان الحمام في الطريق ، بل قولوا : أين الحمام وأين الطرِيق ؟! .

أيكون من أول فرحة الظاعن إلى القبر كفرحة المقيم فيه ؟ .. سل شيخا في عظمه دليل حياته عن تقادير الدهور فيها ، وفي قلبه أشكال الألم والحزن والشوق والحنين عن معنى الذكريات ، فلن تسمع غير قوله : لا تسأل قلبي عن ذكرى في يومها وساعتها ، بل سله عنها أين منه حنينها وشوقها ؟! .. لا تبكي أيها الشيخ فإن

الذكرى فيك عالقة ، ولن تكون من نفسك إلا ما كان الدهر منك ! لا ترجو في مثل البكاء حزنا !

أنت في شرك الخيال والوهم لو أملت بعقلك طائعا نحو قلبك ، أتريد شيئا من توافق عقل وقلب ؟ ، إنهما لجبلان أشيبان في أحدهما بركان يطوي طويا على ساكنه ، والصاعد على جبهته ، وفي الآخر منحدر دارج يهوي بك إلى أعلاه ، فإن قلت إن أولهما أفضل من أخيه فقد كذبت ، وإن قلت الآخر فقد ظلمت ، إنهما سيّان متى اشتكت ذرى قممهما وما أجملهما لو أن في كل روح تؤثر على جبل أن يُنسف بذكرى وحكمة فيزداد في الآخر معنى الشوق والحنين ، أيكون في موت القلب مصلحة للعقل ؟! ، إنه لنسف للعقل والنفس والعين ! وما يكون من موت العقل إلا زيادة في حزن القلب ، فإن حزن العقل بنقطة قدّمها أو أخرها ، والقلب بذكرى نسيها أو تناساها ، وفي النقطة بعد كلمة الذكرى عقل وقلب يخفقان ويرتعدان ثم ليكونا نهبا لقانون ومصطلح ، في ذكرى يختالها حنين وشوق وألم وحزن!

لا تستبين خبايا الباطن ولن تستتر ظواهر المرء إلا إذا علم بأن الحزن في قلبه ما دام قلبه بين يديه ، بل بين عينيه ، وإذا ما همّ بسوء أزرى بسوء على هذه الدنيا وأهلها ويستبق عمره الآخر ذمّارا شاكيا ! .. فليقل ، هل من الذكريات في حزنه شيء؟! إن ألمها وشوقها وحنينها لهي قلبك وعقلك ونفسك ، بل هي لسانك في قلبك؟ لا يتحرّى في كلمة إلا موضع الألم من دمها ، ولا يصيب إذا أخطأ في وجهٍ من الشوق يتأول به وجوه الذكريات جميعها .. عندما يكون مفتاح القلب قفلا من الماضي أتدري ما تلك اليد التي تفك درع هذا الباب وتسلّ عزمه ؟ تلك يد الذكريات ! .. وفي مفتاح الماضي بقفل من القلب يد تمرّ عليه معالجة فما تلك اليد ؟ إنها يد الشوق في ألم والحنين في حزن إذا كان القلب هينا يريد ، فإن لم يرد فأبقي عليه الباب مغلقا إلى ذلك الحزن فهو منها لا من القلب وشوقه وحنينه ، فلعلّه بهذه يرد حسرة الحزن فيُفتح ! ..

صفا لي أيها القلب من تلك الذكريات ساعة واحدة ! .. لا تجعلها من ذخرٍ لي عتادا عليّ ، أو من ذخيرة لك مجزرة بشوقي ، فإن فيها أمنية للطبيعة لها وللحياة ولي منها كلّ خير ! انظر إلى هذا الكون فسلْ كواكبه ماذا جرى عليها مذ خُلقت ؟ فلن تلهج لك بكلمة فقد انعقد لسانها مدارا تدور به ، إذا فتسأل الجلّاد ماذا في ظهر صريعه منه ، فلن يقول لك شيئا فذا لسان سوطه .. وقل للقلب ماذا بقي فيك من الذكريات ، فلن يفرغ لك الكلام من معينه ولكن انظر إلى ألمه فإنه لسانه الذي يخبر به..! وإن في بعض القلوب من تلك التي تعللك أن في بعض أدواء الدهر أدويه لها ، وهل يكون في الداء دواء ؟! .. إنه دواء مادّته من الداء ، وليس سوى الواو من مُشاكلة بينهما ، فإن الدواء داء آخر ، إذا أتاك في جنب عقلك مما ترضى أتاك في جنب قلبك مما لست عنه براض ، وما الداء إلا دواء آت عليك في قلبك وعقلك ، أي في حنينك وحزنك ..!

إن الذين في قلوبهم نقطة من تشتت تهوي بهم في مطامر الحياة فيأتيها فلا يكون القلب شيئا من الحزن والشوق ، بل هو حزن و شوق فيهما كل شيء ولا تقول في شيء أن للقلب منه نصيب ، لكننا نقول أن للقلب منه أثرا وأيّ أثر .. ! و في اختلافها ما يبقى علة وفاقة ، فخذها أيها القلب راضيا حزينا ، أو اتركها فاقدا سعيدا .. أرأيت لقالتك تحنث في قولك شبها على ذلك القلب زيفا كيف به أنصف الإنصاف ، ولو جعلت من الهجاء فيه أمواجا متدافعة لا تستقيم معها سفن برجالها ، فهل في ذلك القلب أن يحتمل قلوبا بخشبها ومساميرها وأشرعتها ؟ هيهات ! .. ما كلها من سفينة تأتي على قلب، بل إن القلب سفينة تعوم وتعذل في البحر ولكن ليس له عليها أن يمضي بها في الأمام أو حتى يرجعها خلفا ، فإنه يجرها بها إلى شمس في غمرة الشوق ، وإلى قمر في عتمة الألم ، وإلى .. قلب آخر في نهاية المحيط في شدة الحزن ..!

في فورة الشك والريبة من قلب له شوق ، ما يكون من أمله في الصدق إلا ذكرى يقوم بدفعها فإذا الظنون أحجمت ، وإذا الشكوك حُلّت ، والسؤال قد أُجيب عليه ، ثم لا يكون في الجواب إلا مدعاة لسؤال آخر تعلم الجواب من قبل أن تسأل ، ذاك هو: حيرة القلب ! ..

إن أغتفر زلة القلب في حزنه فلن أغتفرها في نسيانه لذكرى ! فإنه استجماع مواد إلى بعضها ثم من يد الدهر يلوي عليه من بعيد فلا يسقط حرفا ولا يزن نظرة ولا يجعل تأنيبا مما كان يسميه ضميرا ..! فإن في هذا الإثم لآثاما وفي عذابه لأهوالا . ومتى ما استرخص عقلك في شيء فاعلم بأن قلبك أجسر عنه وأغنى ، واعلم إذا ماد القلب حاد الطبع ، وإذا حاد المرء حادت الحياة عنده جنونا ولهوا وسفاهة . لا تربط القلب بهموم تنساه معها أنه قلب له من الحياة ما يريد نصيبا ولها منه ما تريد رجاء ودعوة

لا تنظر لكأس الخمر حين تشربها بل انظر لها حين تريقها على الأرض ، فتلتم بالذباب، لقد كان قلبك إذا كمثل ذلك الذباب يهوى كلّ شيء و هو في بعضه وذاته لا شيء ! أفيكون في فهم خلق له خلاق قد ركّب فيه ، فإذا الواحدة منها لا تعلم من هم تنساه ولا من شوق تطلبه بدفعه ، ولكنها تعلم خمرا تنسى معه من أنت ومن هي ! .. بل انظر إلى كأس الماء وفيها اللذة كاملة، فلن ريقها إلا وأنت تعلم أن ما للذباب إليها من سبيل ، فهو في نفسه خمر آخر فما يعلم من طبيعة قيل عليه أن يقبلها بين لحظة وأخرها ليحتبس ، ثم يطلب حميما ..! أفترى ما شأن ذلك في القلب ونوازعه ذي الخوارق ، إنه القلب السقيم الذي يفرض عليه الطبع طعنة من ألم الشوق وذكراه فإذا هو قلب ممزق لا تعرف السلامة من أين جهة تأتي عليه ، أو تعرف ما تلك أيها القلب، إنها حيرتك ...!

لا يسعد القلب بحيرة تجترّ له بكل حزن فيرى في الطبيعة علامات بؤسه ، وفي دارة القمر طوق موته ، وفي الظبية المزهوّة بقرونها أسياف قتله ، وفي ظلال

الأشجار ظلال قبره ..! ما يكون من جزم القلوب إلى الحياة إلا سعادة بذكرى ، أو حزن بشوق وحنين ، فلا تلتف في وجهك السبل ولا تختلف على عقلك القوانين بكلماتها ، فإنما القلب قلب له شيء يصبو إليه ، والجدة حيرة لها صبوة في شيء تريده ، وفي إرادتها له موت ذلك القلب ..!

۞۞۞۞

إن أبواب الذكريات مغلقة فلتفتحها يا قلب القلوب ، بل يا بقية مادة الخلق في أسوار الأنام وأشكالهم ، بل يا جهلا في علم كما في ذلك القمر نور ..! ما يكون من كل ذلك الحديث ما يجدي على القلب فيسعد ، بل لعله يُجدِي فيحزن .. صادفت يا ذكريات العمر قلبا غاشما ظلوما لا تجدين في حوز مشاعره إلّا ولا عهدا ، فلا تزجري الدهر إن فاتتك فائتة ، فذي الدهور فهلّا طرت من فرح .. وما تزال في عقل إنسان أن الزمان يهرب ويغذّ والحقيقة ما نحن بمجتازين إلا بتلك القلوب الحالمة ..!

أفي حيرتك يا قلبا تتهاوي به آلامه وأمانيه على هذه الدموع التي غدت زهيدة تجتاحها فلا جامحة تمرّ ، لا يكون بذا القلب إلا ذكرى نسيها فهذا منتهى حزنه ، ودع عنك من شيء ما لك منه شأن فذاك عميله الدمع وبكاؤه..!

لقد اجتمعت في القلب النوازع والأحكام ، والعواطف والقسوة ، والجسارة والرحمة، وفيه من كل ضد في هذه الحياة خيط يوصله إليه ، فحتى لو لم يكن قلبا عطوفا ، فليكن قلبا في جوفه ذكرى في جوفه شوق ..!

لم يزل في النفس شيء لا تودّ البوح به ، ولم يزل في العين دمع لا تريد أن تبكيه ، ولم يزل في هذا العقل مسألة زمانية لذاك القلب لا يرد لها حلا ... ولم يزل في ذلك القلب رحمة لا يريد أن يبديها إلا يُعدّ بعد ذلك خنوعا ضعيفا ، ولم يزل على هذه الدنيا شيء للقلب منه نصيب ، ولم يزل من هذا القلب للأرض وخلقها ذكريات يريد لهم أن يذكروها ...! ألا ما ألذ وقع شوق الذكريات ، وألذ ما فيه ألمه ..!

الفصل التاسع

شـرخ الشباب

لله در الأيام ، لم تبق على شيء جميل ، ولم تقر بذهن أحد أنها أيام ، وإنما يرى المرء آلاما قسمة بين تلك الأيام التي في ظاهرها دقائق وساعات ولكنها ، أشجان وآهات .

إن الذكريات لتنصبّ على هذا القلب المرهف فتزيده شاعرية وإحساسا . وتتمثل له الأيام الغابرة وكأنها نعمة من الله إلى خلقه . وما كان يخفى عليّ أن في بعض الشعر عذابا ونصبا ، ولكنه حلو المذاق إذا ما فُتن بالذكريات فتبيّن جيّده من رديئه . وإن قلب الشاعر لأقسى قلوب الناس ، فهو يجمع من فضيلة السماء إلى فضيلة الأرض ، ونفسا من الملأ إلى نفس من حقيقة الموت ، ودما من أنهار الجنة إلى دم من طينة الثرى، ومع ذلك فتراه دائما يُنازع جانبا تلو جانب ، فينظر إلى هذا تارة ثم يحجم ، فينزع إلى ذلك المعنى الذي يعتقد أنه الأنسب ليسكب دمه الزكي فيه ...

نظرت فإذا بالأيام ما تزال تُنسي المرء ماضيه وذكرياته حتى لا يرى أن له ماضٍ ، وإنما خُلق الساعة لا يدري لما اختار الله هذه النفس في هذا الجسد في هذه الأرض ، ويعود بالشيء الذي جهله بالشيء الذي يكفر به . فتتأمل يا ذا البصيرة هذه الأيام وحُكمها ؛ لتبصر خيرها من شرها فترى أيقوم به أم يطغى عليه . يا لهف تلك القلوب ما برّحت بها الذكريات الحزينة حتى أن المرء لا يجد من طعمها إلا ثلاث سموم ، من ذا العقل ، وذا الذي يسمونه القلب ، ومن هذه النفس ... ما زلت أتخبّط تائها لا أظفر بمذهب أسير عليه ، أو أنتهجه قليلا قليلا ، فكل الشّعاب سُدّت آفاقها بأقفال ليست موانع ولكنها محظورة ، أرأيت تلك الجبال وأسافلها يرتاضها النّاس أكثر من القمم ؟ أرأيت تلك الحفائر يلجئ بها المرء يستروح بفيء هجيرها وعذب ماء كدّها وتعبها ووصبها، وكلّ ما لزِمَ من الأمر إلا أن يقلع عن السّفه الذي أقحم نفسه به حتّى إنه يعذّب نفسه بيده ..

ليس كلّ الناس أمثال بعضهم ، وليس كلّ الناس أمثال ذلك الرجل ، لا أدري أكان رجلا أم مَلَكا بهيئته ؟ فإن في ألحاظه لسحرا ما هو بالسحر ، وفي محيّاه لنورا يشع ، فمتى رأيت نورا فاعلم أن نور الله سطع على جبينه فارتدّ زاهيا ساطعا!

كلٌّ يجري لمأرب يقضيه ، أو وطر يجنيه ، ولكن فيه مثلا من أمثال الملائكة لا تعرف غير التسبيح والحمد والصلاة ، ولا حظّ للإنسانية منه إلا تلك القسمات الدّالة

على بشر من بعض بشرها ! .. أنا من أنا ؟ عندما أراه وقد أطلق العنان لثغره يعلو بالضحك غير آبه بمرض أو بابتلاء فكلّ مقدّر مسطور، أحجب نفسي مرتاعا من ذلك السعيد في دنيا الحزن ..

الناس تضطرب و هو ما يلبث قارعا في وجهها ، كأن من حكمة الأنبياء له نصيب، سترى كيف به يهمُ على وجهه مسرورا عندما يرى طفلا يركض حول يديه، تراه في كثير من أشباه هذا ! أو لمّا يسمع حاديا يحدو بشيء جميل ينصت إنصات الحكماء لصوت عقولهم ، أو من يستجدي بطلب فذاك المنصت هو المجيب!

قد انقلبت خمس وأربعون سنة من عمره إلى خمسٍ وأربعين يوما من أيامه، فلا ترى إلا نفسا مملوءة بالعطف وشيء من القوة قد استحالت إلى قطعة من فلاة الجنة ملقاة على قفر من أرضِ الدنيا، ما بها سوء عزاء لمن أراد عزاء ، أو تهنئة لمن أراد تلك، ولا شيئا مما أُريد به ذلك الرجل إلا استمع وأجاب ...

كأني به إذ تتلاقى عيوننا في مدى واحد يريد بي أن أُطيل النظر كي تستبين حقائق خلف تلك العيون ، وتستعظم دقائق مما وراءها ، فأتمنى لو أننا نمضي الحياة نحدق في أعين بعضنا بعضا كي نصل التاريخ بين الماضي والحاضر بشيء من المستقبل ، وما إخال ما ذهب من عمره إلى ما أزيد عليه من عمري إلا قليلا من عمره الباقي ؛ لكثرة الدعاء له بالحياة والبقاء أنيسا للذين تتقطع بهم الحياة كل يوم مرتين ، فالأولى عندما يكون سعيدا فتقلبه شقاء ، والأُخرى عندما يكون حزينا فينقلب ضعفا وضعفا آخر .. فما أقلّ أمثاله في هذه الدنيا !

قد حُفَّ جسده بالذكريات حتى ذهب بذهاب لون شعره الأسود الذي أصبح أبيضا ، فما به ذهاب الأول إلا بقاء الثاني ، وما دُعي بالهرمِ إلا لأنه هرمٌ باسق ، قد بُنِي حجرا حجرا من الأناة والصبر وطينة كأن ... كأن المسَك بتربة الفردوس عُجِنت، قد أدقّ التفصيل بانيه ، وترى في ثنايا الهرم أهوالا تحمّلها جسده حتى أثّرت به ، وحزّت فهذي آثاراها تجد منها ندبا على كل حجر من تلك الحجارة . كلّ بناء يهرم ، ولكن ليس كل بناء يُعاد تجديده ، فلطالما رأيت من كبواتٍ فما تزال إلا متانة في البناء الجديد ، وصلابة وحزما كأن لم يكن شيء ...

مخطئ من يظنّ أن الشيب هو الخَرق ، فذلك الظآن هو الخرق عينه ، لأن معنى الخرق لا يكون إلا في صالح فسد ، أو فاسد ازداد فسادا فذلك أعظم الخرق ، لكنّ ذلك الرجل لا يزال متقيا بنفسه يجتاز أطوارا ما اجتازها من كان قبله. أفأنت تدري من تعني بقولك يا ... يا مشكك ، لا تظنن أن الرجل طعن في السن فأصبح مدرسة للهذيان لا للحكمة ، أو أن بعض ضعفٍ في النظر صار عمى ، فلعمري ما حُبب إليّ من العمى إذًا إلا ذلك النوع كما تدّعي ، أنت ستعلم كيف ترى نفسك في مرآة قلبه إنسانا على حقّك لا ثقل في هذا يطوش بتلك ، ولا سريٌّ بتلك ترجح بها هذه !

إنك لو رأيته و هو يتحدث عن شيء عالق بين عالمه والماضي ، ويحاول أن يتذكر فلا يستطيع، ينتظر من الإلهام أن يقدم صوبه فيتعسّر ، فيقول مداريا :" على كلّ حال " ... سنرى تلك الأحوال هونا قريبا تتبدى لنا من حديثك العذب الرقراق، وأيم الله قد جمعت بتلك العبارة التي قلت التاريخ بجميع ساعاته وأيامه ، وتروي لنا خبرا من ذلك الذي حصل أو رواية من تلك الحادثة في سنة من سنيٍّ شرخ الشباب قد قضيتَها ، فأين من القلب الحزين إلا هذه الذكريات التي تبرّد عليه شيئا هيّنا ، وكلّ ما أستطيع فهمه إلا ذلك حينما يقول :" وكنّا اذا استروحنا فيئا نبغيه لا نملك أن نطلبه إلا بعمل نسديه ضريبة على ذلك الفيء ، في حين أننا في السداد نشعر بأن سنين تمضي ونحن نقوم بالوفاء ، وأن الاستجمام لا يبقى إلا ... إلا لبضع دقائق من عدّاد الثواني"، فأرى بعدها دمعة تسقط على جبينه ، فإنه لمن هوان الدنيا أنه زمان جعل همّه أن يؤرّق هذه الدموع ويململها حتى تخرج ، أما كان في انحباسها خير من خروجها ؟! أسأل نفسي وأجيب نفسي ، هذا وقت انقضاء الهرم وسقوطه ، ثمّ لا تلبث أن ترى أسنانه كمثل من جمود الدّموع وصلابتها بادية فأدقّت هذا البناء .

إنك لو رأيت كيف خلّفت السنين في وجهه آثارا تدلّ عليها ، وتنظر لها أسفا على وجهه ذلك الشيخ . كبياض الثلج من النصاعة ، يتخللها آخر أسود فذلك هو شرخ الشباب معاندا السنين على أن تشوّه ذلك الوجه الذي استهلّ بياضه مستبشرا من منابت وجهه تمتدّ عابرة تلك السنين التي لا تكلّ ولا تمل من رسمٍ لها على ذلك الوجه . آه لو رأيته وهو يسبل الدموع الغالية إشفاقا على الدنيا وأهلها ، كنت عرفت حقا ما تلك السنين في نظرك ، وما تلك السنين في نظره !

تترفّق أحزانه حاملة لها ومبدية ، ولكن ذلك الأثر لا بدّ وأن يُوجَد ، أتأت الحكمة من شيء مضى وسلف ولم يكن له وقعٌ في القلب ولا خبوٌ في البصر ؟! أتلك هي الحكمة التي ترجى إلا بذلك البياض القاتم المنتشر ؟ أتعلم أي شيء تحمله تلك السنين .. إنك لا تعلم شيئا !

لقد بقِيَ شيء من أثر الجنة في شيء من صورة الأرض ، وما زالت أكدار من الحزن الأرضي متعلقة بسعادة من الحزن السماوي ! سوف تراه وقد خلّل أثره من الطين في أثره من الجنة ، فماذا بقي لأحد من هذه الدنيا إلا أن يبقى أثرا يشاكل أثرا ، أو صورة تختلج بصورة أخرى ؟! .. ذهب كلّه وبقي بعضه ، وانقضى ذلك العمر الأرضي إلى ذلك العمر الأبدي ، فكأن به نفسين لا نفسا واحدة ، فالأولى كما هي نفس شيء يأتي ثمّ يرحل ، والثانية نفس شيء يرحل ثمّ يأتي حيث لا رحيل بعد ذلك!...

يحسب نفسه يستقي من ماء الكوثر كلما ظمئ ، ويخال قلبه يستروح بنسيم الجنة كلما ضاقت نفسه وحشرجت ، ويظن أنه يركض متصابيا كلما هزلت قدماه وبطلتا.. أوتحسب هذا إنسانا يرى نفسه في مكان ويشعر أنها في مكان آخر ؟! كالجائع يمنّي نفسه بطعامٍ ويصبّرها عليه حتى إذا قدم قال : قد شبعتُ ! . فمن مثل هذا كان مثل

ذاك الشيخ . كلّما حزبه وا همٌ من أمر الدنيا طاف ببصره فجاوز الحساب والحشر والقبر ، حتى استقرّ في الجنة يمتّع نفسه ويُبهج قلبه بما هو مغنيه عن هذه الدّنيا ومتاعها. فكأن له قدمٌ هنا وقدمٌ هناك ، وقلب هنا ينبض وقلب هناك يعيش ، وروح هنا باقيه وروح هناك ممتعة . من كلّ شيء له بين العالمين سبيل ، فما أضرّه بلاء هنا اصطبر عليه ولكن أضرّه نعيم هناك تأخر عنه ، وكأن الملائكة تناديه هلمّ هلمّ فهذه دار الخلود ، فما كادت ترجو الله أن يمتحنه ببلاء وبلاء حتى يطعم شيئا من الجنة فيزداد شوقه إليها فيزداد القرب منها ! آه أيها القلب لو أنك في الجنة تعيش وإلى أهل الأرض تنظر ، ولو أنك من ماءها تشرب ومن الأرض تظمأ ، لكنت كمن انتشل الزهرة عطرا لا ثأرا ، يطلب منها شيئا مقابل تخليصها من العالم الدنيوي ونقلها إلى الجنة ، فالتموت الآن لتحيا لاحقا ، ولتفنى الآن كي تبقى أبدا..! كلّما رأيته مطرقا أيقنت أن روحه الآن ليست هنا بل هناك ، وأن قلبه لا ينبض ليعيش بل يعيش لينبض، وهو الآن يتنعّم بما يشتهي قلبه وبما تتوق إليه روحه ... وله من عقول الفلاسفة كلما استفاق وأبلّ ، ينهمل عليه الإلهام يسري به فينفض أوصاله مِزقا من النور والرحمة التي اشتقّت معانيها وأسمالها من نور الله ..

لقد بقي شيء من حكمة الله في شيء من فتنة الدنيا ، وأنت إذا نظرت إليه لأسلمت جنانك بوده وحفظه ، فسترى بعد أين القلب من القلب ، وأين الروح من أختها ... ستعلم حينئذ ولكنّ الوقت سينتهي وهذه الأيام تمرّ مسرعة بلا توقف ولا روية ! . هل عرفت من ذاك ... ستعرف حينما تنفتح أسارير وجهه مبتسمة كأنما يضرّج جرحا غائرا في قلبه لا يريد أن تداويه أنت بعبوسك دواءً يزيده مرضا .

رفقا بي أيتها النجوم ، ورفقا بهذا القلب الذي كلما استمد من نورك شيئا غرغرت روحه بين العالمين فكانت إلى الآخر أرجح ، ورفقا بهذا النفس التي كلما رأتك تزينين السّماء حسبتك تزينين كفنها ، وترصعينه بمعان من الموت فوق الموت الطبيعي ... ألا رفقا بذلك الإنسان نصف الإنسانية ، فإن له لعزيمة لولا للكون بوسعه أكبر منها لاحتواه على مصراعيه ، ولولا الحياة على كرمها لاحتواها بكرمه كله ...

إن الشيء مبني على شيء ، فإن فسد الأخير فلا ريب من هلاك الأول ، وإن كان في بناء ذاته كما هو في بناء قلبه من الرحمة والفضيلة كان ولا جرم شيئا ككل شيء من الطبيعة الجميلة ، كذلك سمت ذاك الشيخ مبني على سمو روح ونفس عالية ، ولعل الحرمان في بعض الأحيان هو ما يفتعل كل تلك الويلات التي تمرّ بنا ، ويجعلها متهجمة تسير علينا ما دمنا راضين بما نحن نصنع ، فإن في الحرمان لشيء يحزّ في القلب حتى لا يعود قلبا ، وتبقى تؤجج فيه أشكالا من الأفعال ليست من ذلك القلب ولكن من الحرمان .. فما ترى إذا نظرت إلى ذلك الشيخ وهو يلوي راحة على راحة معزيا لا يدري ما يفعل ولا ما يفتعل ، ستراه يشكو دهره من ضيم وحزن ألما به حتى شحب واستحالت هالة من الضياء حوله إلى نفثة من الغيظ تميد بها أواصله ، يرضى بالقدر ويسلم الأمر !

رفقا أيتها الأقدار بذلك القلب ، ورفقا أيها القلب بتلك الذكريات من وأدها وقتلها ، ستذكرها حتما حينا بعد حين أفأنت مقدّر ذلك لنفسك ؟! ورفقا أيتها الذكريات بذلك الشيخ فقد رقّت قوّته ، وهانت جسارته ، فلا تثقليه إلا بما هو أهله ، وما إخال إلا أن كل شيء هو هو أهله ! إن الروح لسائغة لينة في يدٍ رحيمة عطوفة ، وإن القلب لينقاد وراءها فمن عطفها إلى ... عطفه .

فإن قال الناس إن فيهم الفضل قلت هو أفضل ، وإن قالوا إن فيهم الحسن قلت هو أحسن ، وإن قالوا إن فيهم الكريم قلت هو الكرم ، فهذه الثلاثة متى ما اجتمعن في امرئٍ فما من حاجة بعدها إلا حياة ثم موت . ولو أن إنسانا قُدِّر له التفقه في العينين إذًا لما احتاج الناس إلى مناظر جميلة ولكن إلى عيون ناصعة ذات قرار تغور فيه جميع العواطف لإنسان من بعض الإنسانية ، ولرأيت فيهما ما لو أنطق الله بهنّ عيناك لقلن : حاشّ لله ما هذه إلا عينان من الجنة ، فسقيا لك أيتها الجنة ، لو لم تكوني مطلبا للمؤمنين لما وُجِد هناك إيمان ، ولو لم تكوني حرزا لهم من الطغيان والفجور إذًا لرأيت أيها المرء ثَمَّ رأيت آفات وأحزانا ...

وإن العينين ما تزالان هما وديعة الله من الرحمة في عباده ، وما تقومان بحقّ ذلك إلا عندما يصفو ما وراءهما ، فإن العيون مفاتح القلوب وأيضا أقفالها ، وما قد يُودع فيهما من دون الرحمة أسبابها ، وأيضا أحلام المرء ومعنى حياته ، ألا ليتما تميد القلوب في أماكنها وتضطرب العينان في محاجرها فهي وقعة في النفس وفي القلب هذي معانيها من رحمة العينين ! ...

حسب الكريم من تلك العينان عطاؤهما ، والشاعر عاطفتهما ، والطيب منظرهما ، والجميل بهاؤهما ، حتى لا يعود لشيء من تلك العينان إلا تقاسمه أولو العاطفة والإنسانية ، ولو أن العيون تعرف بعضها لكُفيَت علينا مؤونات الكلام ، ولو أنها تَخبَر ببعض أسرار الحياة والكون إذا لهان كل عسير ، فليس سوى نظرة من هذه العين إلى تلك العين فإذا كل شيء قد عاد أفضل مما كان !

لكل قلب داء وله في سائر القلوب دواء ، وحبّذا لو كان الدواء ذلك الذي صُنع من قديم الحِكم والعلم ، وحبّذا لو كان مثاره عند هذا الشيخ فإن له قلبا يحمل القلوب جميعها ، وله بين جوانحه وأوردته التي لا يأتي الدم إلا بها لا تأتي الفرحة والسعادة إلا منه ، وفيه من كل شيء قد تمّ صنعه وإحكام صنعته لداء جميل من دواء أجمل . آه لو أن القلوب كلّها كقلب ذلك الشيخ ، حتى إذا كان لهنّ حاجة من الدم كانت له حاجة إلى النزف ، ولو أنهن طلبن الرحمة لطلب هو قلبا ظاعنا شديد البعد عن اليوم ، قريب القرب إلى سائر الأيام .

تقول لي نفسي : ألا ما أجمل العمر كلّه بتلك الساعة الحميدة منه ، فليذهب إلى الفناء ما دام الإنسان راضيا عنه بتلك الساعة التي ما تزال تزيده قربا وإمعانا . فقلت لها : بل أجمل منها دقيقة بجوار روح تقرّ بجنب روح ، وقلب يمدّ قلبا ، وعينان

تتصلان بعينين ، ومن ذا يكون سوى ذلك الشيخ ؟! منزل كل طمأنينة ومستقرّ كلّ رحمة . ألا لو أنّ قلبا لا يسعُ صاحبه محمله بل يكدّه ، فليسأل قلبا آخر تواطُؤا على هذا القلب الذي ثقُل . فما أبعد بين القلوب إلا الأنفة في شيء ينبغي فيه طرحها عنه ..

تقول السماء القديمة ألا ما أبلى السماء الجديدة وأشأمها ، فأقول بل ما أبلاها ببلاء أهلها ، وأما أنتِ فما أجلّك إلا جلال أهلك ، فإن ذلك الشيخ ما تزال روحه صافية وقلبه أكثر جودا ، فما لطول تلك المناجاة بين السماء وقلب هذا الرجل وأعمق مكنونها ؟ ، فإنك لتكاد تسمع صداها صامتا بين ثنايا قلبك ، وتشعر بطقطقة الأنفاس عند اضطراب نفسك ، وتحسّ بحشرجة الهمسات عندما تنوح روحك ، فما أجلّك أيتها السماء كيف لو أنك غشاء قلب ذلك الرجل لست بعيدة عنه ، إذًا لكانت المناجاة شعورا ، والأنفاس نبضات ، والهمسات دم زكيّ اختلس معانيه من معاني الذكريات والماضي ... وإني لأفيء إلى قلبي كلّما نظرت إلى السماء علّي أجد شيئا من أثر ذلك الشيخ فيه ، آهٍ ما أشد على قلبي ما جاءه من تلك السماء، فلم تملك زمام أمرٍ حتى تعرّج إليها ببصرك النافذ وروحك الجميلة كي تلفي هناك أثرا من الرحمة الموجودة بين نجومها وذلك القمر . تبعث بنور كأنه الصبح بعد ليل أو لقاء بعد هجر طويل . وليت مكوثها بمكانه طويلا إذ أنها ما تلبث تطرق أبواب عينيك حتى تولي مدبرة من حيث جاءت ، والأماني منوطة بتلك النجوم معلقة على طرف السماء تكاد تنزلق بالماء العالق في السحاب ، لولا أنها تتربص تنتظر قلوبا ولهانة ونفوسا مشتاقة لتهوي إليها فتبرئها وتجعل فيها العلاج ... إن الذي يراه القلب في السماء ليس نجما وإنما موقعه ، كذلك الذي يلفيه ليس نبضا ولكن مرارته ، والذي يريده ليس رحمة بل معناها ، تُشبّه على القلب معانٍ لا يفقه فحواها إلا عندما يكون القمر استنفذ نوره على الأرض والنجوم تبعٌ له في ذلك . وعندما تكون القلوب قد شاقتها النجوم ونورها والعيون مغلقة لأنها لم تجد طارقا يطرقها ويُآذنها بالدخول ، فحينها ما نفع الحاضر أنه استطاب ، وما نفع المستقبل لو أنه تفرّج فكلّ ما يريده القلب هو لمحة من الماضي بل من الذكريات بينه وبين النجوم لعلّها تعود إلى طبيعتها مرّة أخرى . فبعودتها تعود الحياة إلى عملها من جديد دونما خلل أو توقف ! ..

ما أشدّ على القلوب فراق القلوب ، وما أهون على النفوس فراق ذواتها، فإن العمر ساعات قليلة خير ما فيها أن يجد المرء قلبا آخر يكون له أنيسا ما دامت هذه الدقائق إلى ساعات ... زعموا أن العقول أقرب إلى كشف الحقيقة من القلوب ؛ لأنها تستنبط وتحلل وتدقق ، وتقوم بمعضلات تفوق القلوب في منطقها . ولكنني أقول إن الكشف عن مكنونٍ لا يلزم له إلا مكنون مثله ، فالداء بالداء يذهب ، أما وإنكم لا تعرفون أسرار القلوب فلا ريب من عدم توفيقكم لإسرار الكون . فإن القلوب هي أكوان برمّتها يعلو بعضها بعضا كسبع سماوات في سبع قلوب ، كل سماء تصل بحلقة من سلسلة العرش مثبتة على وجه الماء ، كذاك كل قلب يصل بحلقة من كل

كون مثبتة في ضمائر الناس وفي نفوسهم ! ألا فاعلموا أن العقول للقلوب وليست القلوب للعقول ، إذا أمكنها التفكير فتفكيرٌ برحمة وليست رحمة مفكّرة . هذا وإن هُديتم لهذا الضرب من العلم فقد هُديتم إلى العلم كلّه ، وإذا جهلتموه فقد جهلتم العقل والعلم به !

سقى الله الشباب خيرا ، فهو عند بعض الناس جنة خرج منها وعند بعضهم نار أُدخل إليها ، وأما ذلك الشيخ فبين هذه وتلك : ينزع للجنة ما دامت فيه روح من الجنة ، وينزع إلى النار ما دامت فيه عاطفة قوية . والشباب بمعنى من القلب المرهف الجيّاش ، ومن الروح النفيسة الثمينة ، ومن النفس النقية الطاهرة ، وهو كذلك بمفهومٍ من العقل الوسط بين الفسولة والحكمة ، وبين التضييع والحزم ، وبين الهذيان والصّحو . والشباب متى ما أُريد به خيرا صار الطوع خيرا ، ومتى ما أُريد به غير ذلك فوارحمتاه عليه ذهب عبثا . وليس للمرء شيء ثمين أحرى بأن يحفظه ويصون عنه مثل قوّة الشباب ، فإنها تركيب فوق تركيب من الطفولة والكهولة ، ومادّة مضطربة من الماضي والحاضر والمستقبل ، وهو الذي ما مكّن القلب فيه خيرا أصبحت الرأفة عليه سابغة ، ومتى ما انقضى عهدٌ عليه وأتى عهد صارت تلك الرأفة رحمة ، وتلك الرحمة طيبة ، فثلاث هنّ من الشّباب : رأفة من القلب النصوح ، ورحمة من العقل الحكيم ، وطيبة من النفس النقية ! ..

يا لهف القلوب ماذا عساها تجني إن هي نظرت برأفة إلى هذه الحياة ؟ بل قولوا لذلك الشيخ حسبك فقد فعلت مالا نطيق ، وفعلك هذا قد أخرجك من دائرة الخير إلى دائرة النقيض ، وأهوى بك من منطق الرحمة إلى مفهوم البغض ، حسبك فهذه ليست طِباع الناس اليوم ، وأنت بذلك تُريد نقل الماضي إلينا ، وتحويل كلمات فيه إلى رموز فينا ، حسبك فما ظننت فيك إلا خيرا ، وما أحسستُ إلا أنك خُلقت للخير مريدٌ له . ولكن فلتكن طلاوة الماضي له ومأساة اليوم لنا ، فما نُريد بل لا نستطيع نقل الماضي وتحويله ليصبح اليوم هاهنا ، دع فإن الخير كل الخير إذا كان البرّ موجودا فإن ذلك الماضي كان حاضرا ، وسيغدو هذا الحاضر ماضيا !

هي ذي أيها الشيخ الجليل معادلة الحياة ، وما أرى فيك إلا بعضا منها ، فإذا أقبلت إلينا بقلب صافٍ رحيم جازتكَ بقلوب غُلفٍ . وإذا أنت أتيت بنفس سامية أتتك بنفوس حاقدة ناقمة ، وإذا جئت بعقل حكيم ناصح جاءتك بعقول عاطلة لا شغل لها إلا تدمير العقول . أيها الشيخ الهويناء ! فإن الزمان لا يُريد أمثالك ، بل يُريد أضدادك ، رحمة لنفسك أمسك عليك خيرك، فإنه لا يروق لي أن أراك مكروبا حزينا بادية عليك علامات من اليأس والعجز . عُذيرك فإنما أُحاول تخليص نفسك منك ، وإنما أُجاهد لاستيفاء روحك منهم ، فإن المرء أقدر بحماية نفسه من نفسه ، وإن لم يكن فببعض غيره منفعة لا ضرّ ! ...

لا تأسفن ، وإلا فافعل الخير كما تُريد فإنما أنت مجازٌ عليه أحسن الجزاء ، ولا عليك من أولئك الملتاثين الذين إنما يُريدون نزعك من أنفسهم ! ، فأنت ستبقى

وسيبقى هذا النور الساطع من جبينك .. سقيا لك أيّها الشباب ما كان أجملك ! لقد حملت إلينا هذا الشيخ فرحما لك ولأمثالك !

الفصل العاشر

نسيم النرجس. النسمة الأولى

إن رمت أيها القلب في كلامك لذلك النرجس أن تصف بعضا من جماله فعسى أن تؤاتيك الآهات الساحرة ، والتنهدات المفعمة ، والدماء الحالمة في أن تستجلي البيان من الظن حوله فيما هو فيه جانح . وما لهذا اللسان الذي فيك أن يوقع الجواب الذي فيه ، ولا أنت بالذي إن ناشدتك الحياة تعليلَ ذاك النرجس بالذي ينشرها غوثا من أبواب طبيعتها ، فتلك التي تشتفي منها الوصف الجليّ وتنهض منها بالبيان المجدي ... وما سلمت لك الكلمات إن أنت أتيت بها صفا من وراء صف ، ولا بالمداد بحرا من بعد بحر ، ولا بالكواغد إن أنت أتيت بها سحابة من بعد سحابة في أن تأتي بجميل واحد من واحدة الجمال تلك النبتة . ولو كان ورائك المدد السليط من الإنابة ثم الإبانة في ما تصف ، ومن أمامك الحمل المحيط من الإمامة والإجابة إن داهمتك الحياة وطبيعتها بسؤال مل لسانك إليك : أين ذلك الجمال أيها القافي له ؟ لما نكاد نراك إلا تبعا له تشير على كل أثر يمر عليه فتجعله شجرة الطريق التي من مبتدأها مبتدأ الوصف ،وإلى منتهاها منتهى الوصف ..! وحسبك حين أتتك بما تكره أن تأتيها بما تحب وتؤثر ، فلا ترج من نفسك وصفا لذلك النرجس إن لم تجعل نفسك نرجسا يبحث الضلال من الجمال الذي فيه ، ومن هذا الندى إلى أوراقه فإلى أوراقك فيجعلها أعذار من التي تزدري بهن صوت الغاوي إن أراد أن يعزف بلسان من الحديد ... تنطق عنه أيها القلب بلغة الجمال ما يقطر بعينه جمالا حين تقول : آه عليك أيها النرجس ، فيك الجمال المستور عن الأعين التي عاهتها النواظر المشفقة عن الأرواح التي تتخطفها الهموم ردحا بعد ردح، ولا تزال كلما قرأت طرفا منك حسبته الجمال وما رأيته ، ولكن شوق به من هول ما تتلقّف القلوب منه ، ومن عظيم ما تطلب الأنفس ، حنانيك ! منك الجمال البادي ، وما يبدو على أطراف البنان منك إلا بنان النَّور الذي ساقك البهاء في معضل ، وفي معضل تسوق عليه من أنوار الجمال الشادي على كل قلب ، والغادي على كل عين وبصيرة ، والداني إلى كل عقل ، ما لهذا الجمال ؟ وما لهذا البهاء ؟ أكلها من الذي تراه العيون من نقطة الجيم من قلب الجنة ، وتراه القلوب فتحسب في كل لفظة من حرف لفظة من فم الطبيعة التي تأتي على الجمال من جهة إلى أربع ، ومن كل أربع في ثمان ، ومن كل ثمان في واحدة ، ألا إنها رسالة الجمال من مرسل الحياة في أرواح الأنام ، فتمضي تلك الحياة كأنها زيادة في معنى الإنسانية ومن فوقها معنى الإنسان ، وتجري عليه أحكام القدر ونوازله وقضائه في خطفة فيه كلفتة إلى الذي هو كنقطة من الشعور في نقطة من الألم ، وسطر من الحزن في سطر من الحنين ، وقبضة من الجمال في قبضة من الإحساس به ...! إني كنت في إرواء

الغليل وتلبية المشتهى من جمال الطبيعة ، وأنظر بالطول الذي ما تكون معه كل غيمة قسيمة إلا أن تشير إلى القلب على امتداده عن قلب ذلك النرجس ، وكنت أسدي للطائل على الغائل ، في أن يدني ذلك أحسبه مشرف القلب فأنقعه منه ، وما كان لي إلا أن أسرِّح بصري فإذا الغمام يجلو عن القواصف ، وإذا الأرض تنبئ عن الزلازل ، وإذا أنا أكشف عن هذا القلب ذي البروق في حدّته واهتياجه ، ومن حممه في شوقه لهذا النرجس ، وإن في الذي تترد به تلك النبتة من خلاصة السماء إلى خلاصة بعضها ، يتروّى القلب من خلاصة دمه إلى خلاصة دمعه ، وإن في تلك التي تطلع على النرجس من عين من النجوم ، تطلع على هذا القلب من عين من الدموع ، وما تلك الدمعة في سبيل القلب النازل عن غرّة العين التي تفور منها الدموع وما تدنو منها الأراجيّ من هذا القلب ، كما تلك القطرة من الندى على صفحة النرجس تطفو على وجهها كما تطفو معاني الجمال على صفحة الدمعة فصفحة العين فمستقرها بعدئذ في قرار الحزن . وما ذلك القلب إلا الهائج من الدموع ، وما تلك النبتة إلا الدموع المهتاجة ، وما هما إلا هذه العين بالدمعة الذي منها معاني الحياة إلى معاني الطبيعة ، وكل ذلك في لفتة القلب إلى نفسه ، وما نفسه إلا التي تسكن فيها أجلّ معاني الجمال المسطورة على الأرض ، وما الأرض إلا سطر من المعاني فيه ، وما فيه إلا النرجس ودمعه ... دمع النرجس الذي تقاطرت به الحياة من شغف القلوب ولهفتها .. ويلي على دمع النرجس وعلى ذلك النرجس ، وعلى دمع القلب وعلى هذا القلب ... !

والجمال الجمال ، وما ذلك في حساب العيي على كلّ شيء ؛ لأنه في نفسه شيئ لا يهتدي إلا بالذي يقصمه ، ولا يفتدي إلا بالذي من حبل الحياة يُصرمه .. وإن رأى امرؤ لنار ثم قال لها : تحاملي أيتها النار على نفسك ، وليأكل بعضك على بعض ، فما حطبك هذا إلا معنى الجمال ، وما لهيبك هذا إلا لهيب الطبيعة منه المسك والطيب ، وما أوارك الذي تنهضين منه إلا ذلك السر البديع ، وما الأسرار لو تكشفت لنا بالثمينة ، ولكن لكونه لا يحضر إلا العقل ، جلّت الطبيعة إلا أن يسمى بديعا ، وإن كان بديع سر النار، هو في ذات الوقت ما يلتهم البدائع بأسرارها .. ولو أتى من ذلك القلب غمامة من الماء الذي به تخبو النار ، لما كانت كل قطرة فيها إلا نارا بمثلها وعلى سردها ، وحتى القلب ، إن كان عند بعضهم مرجلا يسبي بمائه على ذلك النرجس المسكين ، تنهمل قطرات الإنسانية عليه فتطمّ ما تطمّ من العجب ، وتبدي منه ما تبدي من السبب ، وما ذلك يكون من الجمال في سبب ..! ، وما هو عند القلب إلا الذي في عين دمع القلب ..!

من تلك النبتة ما يُلمس بالقلب ، ومنها ما يُلمس بالدمع ، ومنها ما يلمس بالعقل ، ومن جمالها الذي مسّته يد الخالق تخطر على المر ء فما يكون لجمال النرجس من القلب في الشعور ، ومن الدمع في البريق ومن العقل في انتظام الفكر ، أن تسدي إليه بحكمة منه فإذا هي حكمة عليه ، وإذا هو حكمة على نفسه ، وفي كل ذلك حكمة

الجمال النائية الدانية ، والدانية النائية ، وما بعدُ دنوّ ها ونأيها إلا السبب من ذلك الجمال ، وإن كان سببا في القبيح منه ، كان ذلك لا يرى إلا الصورة فيتصوّر منها مثل ما يُريد ، وترى أجمل الأشياء عندك أقبحها عنده ، وترى أصفاها لديك أكدرها لديه ، وترى أنداها في حسابك أغلظها في حسابه ، إن كان هذا إلا حساب ما تبلغ بك النفيرة عن المخوف ، أو المقترة عن الجود ، أو المجدود عن الغنى .. !

إن من الإنسانية من إذا عُدَّ في أهلها عدّت بأخلاقه ، كذاك هو منها إذا آذن الدهر منها زوالا عن أمة من الأمم لم يكن في موضعهم إلا موضع ذلك الخليق ، الذي تشققت عنه رحمة الله وما كان إلا نقطة الرحمة بهم ، وهم نقطة تصلهم به من جهة الكلام ، ثم من جهة الشعور والإدراك يأتيك بالحديث الرقراق والكلام السّمح بمن ألهم له إرشاد نفسه ، وما نفسه إلا طابع الحياة في نفوس الإنسانية جمعاء.. ! كذاك من النبات وزينته ، من إذا طابت نفس الطبيعة به أخرجت لك الباقي من أصل الجنة التي بها ، وما تلك الباقية إلا عنوان الخضرة في جبين الجمال الأخضر ، ويكأن تلك النبتة إن أريد بها تصوير الأرض بمنازعها وملهماتها ومسالكها لم يكن ذلك إلا من صفاءها وجمالها تستوي فيها العروق التي تصب في بعضها الحياة وفي بعضها جمالها على ما أريد به ، ومن قلبك الذي يُراد به بقاؤها لتبقى آثار النعيم المحجوب رهنا في كل التفاتة وانعطاف بل وإعجاب بذلك الخلق... ثم إن طمعت أن ترى إلى جمالها وما يوصل به أو يتصل ، ترى العالم المخفي عنك ، وخفيّ الأنين عن سماع القلوب ، وترى ذلك وما تراه عظيما إن أحصيته ، بل تراه عظيما إن هو أحصاك بما يريد ، وما تستهوي منه إلا الذي يستهوي هو منك إليك ، حُسنا أيها الجمال ، وجمالا أيها الحُسن ...!

لو أنصفت أيها النرجس في استيفاء سحر هذا النرجس من تعويذتك لما عازني أن أتكلم ، وأنا الذي كلامي كموضع الموت بين عيني الحياة ، لا يزيدها بيانه إلا غرما ، ولا بليغه إلا ترابا من كلام القبر ، ولو في هذا كان الكلام أطيب ما يكون، وما هذا القلب الذي يجنح إليه وقدر سلطانه سلطان قانون القلوب ، وفي كل أمر كل ترغيب ، وفي كل نهي كل تعريب ، وما أنت بالذي تأتي فيأتي على شاكلة الوجوه جميعها ثم يسقط منها كلها بالأمر ، وما نهيك كالذي استقر على الشر فما طاق إلا أهل وسياسة الشر ، فبينها عن الخير لا لأجل الخير في نفسه بل لأجل الشر من نفسه هو ، وما أدراك ما تلك النفس ؟ بل ما أدراك بذاك الآمر الناهي ؟ بل ما أدراك بذاك الإنسان في قوانينه التي خوّلهم الجمال فموضع منه لها ، أما هو فما تحسّ به الطبيعة إلا رمزا من رموز الحيوانية فيها ، ثم هو معنى من معانيها ، ثم هي منه اسما من أسمائه ...!

قد جعلتني أيها النرجس بعضا منك ، لا يتوردّ الحنين مني إلا على مثل خديك ، ولا استلين من نفسي شيئا إلا بمثل قولي لك : حنانيك ! وإني لا أرى فرعا مني إلى مقرونا بفرعك المائل ناصية إلى جوفك ، ثم سخّرت مني جمادا مثلك ، فميّادا كشكلك

، وأنت تريد مني في معاندة الأيام وتقلباتها ، وأنا أريد منك في مطارحة الجمال ومقابلاته ، وتلك الحياة تريدني وإياك نعيمين لها ، ولقد وقب المراد إنما هو إلا أداة القلب ، ثم أنت كما تحب ، وثمّت أنا كما تحب الطبيعة والحياة أكون ..!

بادرت يا قلبي إلى ذلك النرجس وما علمت منه من أنت فيه ، ولو أخرجك من نفسه إلى نفسك فلن ترى إلى بعضك جملة إلى جملة ، وجميعك حرفا إلى حرف ، وحياتك نَفَسا إلى نَفَس ، ولو قامت لك الحياة يوما على ذلك ، فسترى مغالاتك على ذلك النرجس ..! العطر معنى لتلك النبتة كأنه الصلاة التي لا تتقرب إليها إلا به حينما تضمّه شيئا من الآمال في معاني الآمال لديك ، بل لدى قلبك ! .. ولو خلقت تلك النبتة زجاجة عطر لرأيت ثم رأيت النفوس وهي تغدو برواحها عليها ، والقلوب تهفو إليها ، والعقول تصبو بين يديها ، ولما رأيت منهم فلن ترى إلا كما بين صبّين أجاز فيما يحب حتى أفرط ، ثم لا يجد في نفسه ما يؤمّل ، فعاد باللوم على قلبه ويزجره : ويحك ، ما لك قد جمعت حتّى مُنِعت ! ما لو أنك اغتفيت على بُسط الجمال وطبيعته ساعة لكنت فانيا إلا من الكمال الذي تريده ، وما من ذلك الكمال إلا الحياة والشعور بها من حيث كونها حياة ..!

أين من الجمال تلك النبتة ؟ وأين من الطبيعة ذلك الجمال ؟ وأين من القلب تلك الطبيعة التي صُفّقت إليها النبتة وخُلقت من مدامع بقايا قلوب الناس ونفوسهم التي كانت صلب أبيها ، وماذا منك لو تعلم القلوب ما يكون فيها لذلك النرجس ؟ هيهات أيها المولّه أن تدرك سرّ من يقفل قلبك إليه أدنى جواب ، بل لو وجدت الجواب فيه لما كنت إلا ذلك الذي يجد هو منك جوابه ، فأنت السؤال عن نفسك ، وهو السؤال عنك ، وبين هذا وذاك فضلٌ في الأسرار التي بينكما ..!

ما بقي من الكلام في مقدراته وأعاليه ، وما يُذال منهما في علوّه وما يعلو إليهما في نزوله عند ذلك النرجس إلا نسيمه ... وكأن لذلك النرجس في قطب من أقطاب الأرض الرافعة للهائم من منثور بهجتها ونفحها ، تأتي به من جميع الأرض فما ملك إلا أن انجذب إليها ، وما القطب إلا هذا القلب الذي النسيم بينه وبين تلك النبتة في جمالهما وجماله كأنهما قيدان يخرّان على السجين لا ليطلقاه من حريته إلى سجنه ، بل ليسجناه في السجن المحرر بقضبانه كأنه أمارات من الأحياء لهذا الطليق ، والعتمة منطق آخر من علم السجن ، وفي الكلام عنه كلام له ، وهذا النسيم بما هو سائر ، لفي الطبيعة من النرجس بجماله ، ومن القلب بفتنته ... وما يملك الحيّ معه بميته إلا العزاء، ولا الميّت بحيّه إلا الدعاء ....

تالله أيها النسيم ، إن قلبي لأحسب في دمه كأنه معنى من معاني فيئك، وأحسبك في رفيفك معنى من معاني سحره ، فيا أيها النسيم قد كنت حياة لنبتة الطبيعة ، فكن مثلها لنبتة الإنسانية ، ويا قلبي فذا الجمال والطبيعة والحياة قد وُضعت فيهنّ ، وإذا النرجس والنسيم وعطره وُضعن فيك ، فإن نزعتُك من بين جنبيّ وأودعتك في نفس مشتاق أكنت تشتاق ؟ أو حفظتك في مهجة متألم أكنت تتألم ؟ أو رجوتك في عقل

حائر أكنت تتحيّر ؟ كلا ! .. إنك لفي صدري لمشتاق متألم حائر ، وإني لفيك بدمك المفتون غرير مأخوذ بالجمال ، والجمال ذلك أنت تعرفه أما أنا فحسبي منك وقد سخرك الله لي وسخّرني لك ... أرأيت ما قد أرحتك منه وقد جمعت لك معاني الجمال في وريد واحد فأرحني واجمع لي الذكرى في نبضة واحدة ... والشوق كلّه من زفرة واحدة ، والألم كلّه من وفرة واحدة .. الآن قد قضيت الظّنة وتكشّف المرجو ، فيا أيتها الطبيعة فاشهدي ، ويا أيها النرجس اشهد ويا أيها النسيم اشهد ...

لمس النسيم على شفّة القلب فأفرجها ، ولمس على عبوس العقل فأبهجه، وخطر على هذه النفس فزادها في غورها بسطة إلى بسطتها ...ولمس ذلك القلب على ذلك النرجس في فرعه الممتد بينهما فما ارتاعت الأيام من هول ما لاقت فيها ساعاتها من المعجزات في الجمال وفتنته ، وما حكى عنها إلا مرة ثمّ طويت فنسيت؛ لأن ذلك النرجس سيذهب بهذا القلب ، و هذا القلب سيذهب في ذاك ، وكلاهما ذا هب على وجهه في العمر والأيام وما الشيء من ذلك إن سألت عنه يفيد ، ولكن يفيدك في الجواب الحق أنك لن تكون أيها المفتون بقلبك ، ولا أنت أيها الجمال بنرجسك ، إلا نبتة النرجس باستخلابها القلب ، وجمال القلب بميله هوى النرجس.

أما علمت ؟ أما وإنه ليأتي هذا النسيم على النرجس من أربع جهات هذا ملتقاهن ، ويأتي على هذا القلب من أربع ، أما إنها الجمال الذي استحكم عليه أنفاسه فما طاق العزوب عن شمسه والدنيا في ظلام ، وما طاق الشروق بليل والشمس يسترها الغمام ، والطبيعة في تلك النبتة بهداها ، وهذا الجمال بفتنته ، وذلك النسيم بنفحه ، والحنين ، وأين ذلك الحنين ؟ والشوق وأين مني ذلك الشوق ؟ ... هذه الأربعة من جهات القلب يأتي بهن، ويأمن من عليه بوصية في صورة الخداع المزوّر ، وحياته في ثوب موته المغرر ، وبنرجسه في ثوب نسيمه المعطّر ...

تقول لي النفس : مال لهذا النسيم ونرجسه قد أخذ عليك ريحك وزهرتك ؟ ، وما ذلك النسيم عندي إلا تنهّد الأرض على نبتة يهفو بها فيزفر الزفرة تخرج من أحشاء الصخور وخلاياها المُتربة ، فإن أقبلت عليه كانت له زيادة في الجمال وإن أتت عليك فلن تطير في وجهك إلا التراب ... حسنا حسنا فيما وفّيت أيتها النفس من ذلك النسيم ، ويا نسيم الأرض انفح في وجه الأيام بالتراب ، فذلك التراب قد لامست ذراته جبهة النرجس وزهره ، فلعلي منك بابتسامة مختفية حول دارة من الغضب ، وليت لي منك ابتهاجا حول سياج من الوصب ، وراحة تحوم حولها أغلال النصب ، ليت منّي أيها النسيم ما في الأرض التي خرجت من بضعتها ، وكأن زفرة هذا القلب لا تهفو إليه ولا إلى النرجس ، بل ما تهفو إليها إلا الأحزان والآلام من عمقها إلا الذي أعمق ... فيا أيتها النفس ، إن كنت من شيء لذلك النسيم لنرجسه ، والنرجس لنسيمه ، كان منه الحزن لقلبه ، والقلب لحزنه ...

لقد كان لهذا النرجس قلب كأنه ينبت منها منبت الضوء ، لا يستقيم لها النبت إلا في دمه ، ولا يخفق إلا من عطرها ، وما أنه إذا أراد شيئا إلا به ، وما به إذا أراد

شيئا إلا إليه ، فما يقبل القلب على النرجس إلا بدمه وفتنته وإعجابه ، والنرجس عليه إلا بعطره ونسيمه وزهرته ، وترى لهما وقد جُمعت النعم واحدة إلى واحدة فيهما ، فما تشعر إذا استقامت لك الطبيعة بعدهما إلا كأنها خيال من الجمال في خيال من أثره على القلب ... وكان ذلك القلب نرجس القلوب ، حتى إذا صافح الوريد الوريدَ لم تنثني عقدهما وقد اتصل الدم بالدم ، فهذا يريك رائحته وكأنها أصورة المسك هبت عليك من تراب الرياحين ، وما لك حينما استنفرت نبضات قلبك إلى ذلك القلب إلا أن تحفظ في نفسك أن ما هي ملكك ، بل لشخص بقبله وحده ، ملك عليك أمرك ، وإذا عرفت كنهه فقد عرفت قلبك ، وإن عرفت قلبك فقد عرفت ... ذلك الجمال ، والجمال جمال النرجس ...!

وحتى إذا استوت المقادير واستحالت الردود ، كأن ذلك القلب قد عفى، وأعفى هذا النرجس وقد حسب أن روحه انساقت إليه وما عاد إلا نبتة هامدة، ولكنه رحل ... وأما النرجس فما كان يرى في ظلال ذلك القلب إلا معتركا من معتركات من ذكرياته ، وما يشعر بدبيبه إلا الحنين ينزل من الجمال قطرة قطرة !.. وما ذلك النرجس مع ذكرياته إلا كهذا القلب مع آهاته المقارفة من طول ما تسأل من أيامها أين ذلك القمر كي تصعد إليه ، وأين تلك الشمس كي تهبط منها بالنور فتهبط له بآهات متوجهة ترى نفسك على ضوء أحزانها ، واعترت تلك الخطوب إلا خطب جمع لها في ذلك القلب ، سيّان أيتها الذكرى سيان ، بكاء القلب وحزن النرجس ..!

إيه أيها القلب ، قد أتاك ذلك الجمال على نحو ما بيّنت لك الذي افتتنت به ولقد عرفت ما هو ، ولقد أتيتك أنا فقام لي ذلك الجمال ومضى الذي كنت أمّلته منك أن أمضي إليك وما أجد في طريقي إلا العثار ، وحتى أني لا أجد في كل جانحة أمل أو جامحة عجب من هذه الأيام وتصاريفها شيئا ليس بعد مما تفقهه لو قلته لك، فإني لأرجو أن أنفذ إليك من هذا الجمال مستترا تحت غطاءه لا ترى مني إذا أردتَّ إلا ما تحبّ ، ولا أرى منك إذا أردتُّ إلا ما أُبغض ، كأن القبح في كلّ شيء قد استبدت به هذه الطبائع وجوهرها بعدما نفذ ، ولو كان مقدورا لهذا الذي ابتُلي بقلبه أن يُبلى بالذي معه يُخضع ذاك مما يأخذك باللين والمؤاتاة ، في أن أعرض لك الجمال ، وبعد أن في جمالك ، وبعد أنا بينكما ...

واغوث ما توكّل الذكرى بي ، ولله ما أصعب وقفتها وأمرّ شوكتها ، وفي كلّ حرف أجهد لألفظه لا أجد إلا حروف النفس تلفظني ، فما أنا إن رأيتني وما علمت هذا الذي تراه حرفا من حروف الطبيعة المقدور عليها أن تمكث في مكانها من الكلمة الإنسانية ثمّ هو بقية الأفواه والألسنة .. أو أنني في طبيعة ذلك الحرف يؤلف الكلمة على ما يرضي من ضميره ، والضمير هو الحاكم وفيّ إن أردته وهو حكم هذه الطبيعة على عاملها ...

نسيم النرجس. النسمة الثانية

عزيز عليّ أن أراك أيها النرجس وقد أخذتك السماء فما اعتممت ، وأخذتك الأرض فما اهتممت ، وأنت بين هذه وتلك في أمرين يوشكان أن يكونا ثلاثا من أوهام الموت ، أو يجتمعان لك بواحد تخرج لك من ثناياه ثلاث آفات لعضو واحد، أو ثلاثة أفلاك لعقل واحد ، أو ثلاثة آلام لقلب واحد ...! وإني لأرى على سحنة النور المنتبذة وكأنها عناصر الألم وخواتمه التي منها تبدأ لك بكل ما يقضّ ويُؤرق ، ولاعترتك الأقدار بالأيام ألقابها فلست منها بمداري ولست عنها بمستغني .. وأراك في نَورك كأنما نثرت على أحلامك لتلك الذكريات بهذه الدرر فما بقي إلا القضاء وقد انحتم ، ولم يجري على العقول منها إلا اللمم ، فإني لأرجو ألا يكون آخر عهدي بك مسحة اللعنة للذكريات ، ولا تكون الذكريات مسحة واللعنة لها مطبوعة في إطار ملوّن ! ..

أرى من حزنك على ذكرياتك مادّة جديدة للذكريات ، وما كنت أعلم أنها منك بأن قد حُرمتَ لها فما وجدت لها سبيلا فجعلت الحزن على الأرض وأهليه بحزنك سابغ ، وما الجمال ذلك و هذا الألم نابغ ، حتى إذا جازتك الحياة بشيء مما تريد نقمت ، وأرجتك الطبيعة إلى نفسك بخير كللت ، فيا أيها النرجس هونا على نفسك وعليّ أن تأخذنا وهدة السوء ، ولعمري ما كان منك هذا ، إلا بالذي صار هذا منك .. فأنت على الذكريات والذكريات عليك ، وأنا على زهرك وزهرك عليّ ، والأيام تجري مجرى الماء الصاعد في مذاهبك وأنت الصاعد في ساعاتها ودقائقها ، ولا تحسبن العين أن تسأم هذا ، ولكن اعتبر بعين تسأم شيئا ما يعدّ في منطق العقل سأما ، ولا في طبع القلب مللا ، ولا في لغة الدمع جمودا ، ولكنه فيك أنت مع حزنك علّة الرأي وخطأها ، ثم إلى مجهل النفس تدع على الطبيعة غاربك ولكن ما هكذا أيها النرجس ..!

قد علمتُ أن تلك الذكريات في حسابك إنما طيّ نفسك على حزنك ، وغفلة القلب عن خطفة الألم ، وفي كلّ ذلك شيء وحيد لا ترجف على ألمه زفرة ، إنه جمالك الذي اعتبر من الدهر عبرة فاغتفر زلّتها ، وأخذ من الزمن يوما فاستدرك مغبتها ، وجرى على مداحض الأثر يخطو الحذر بعد الحذر فما تجني وأنت الرهين إلا النّزر ، ولا يرجع حينما تجنيه إلا بالغرر من كل شيء معتبر على الحياة فإنها لا شيء وإنما النرجس بالجمال كلّ شيء ... كأنما الذكريات التي تجهد في حفظها تجهد في تضليلك ، وكأنك المنذر على نفسك مسألك وصبك تجري عليه بكل غائل وعاذل ، ألا أيها النرجس أخرى ، لا تدع الحياة تفنى والموت يحيا ، ولا تدري إن أنت أتيت منها

بالذي تحمد إن قضيت ، أو بالذي تكره منه إن متّ ، أو من هذه وتلك ، وبعد كيت وكيت...

إن رآك الجاهل حسبك مقت الله على النبة التي منها نبتّ ، وأرضك نفيسة من الدخيلة على هذه السماء ، وهذه السماء على ما أنت منه .. وإن رآك العالم لم يشف من شيء إن غررت وحدّوا أمامه ، حتى يأخذ الاستنباط ثم إن يجري عليك مجرى الخطرة تخطر له ، وهيهات بعد أن يقول لك ما بك وماذا فيك ؟ ، ولكنه يقول ما به منك وما منك به .. وإن رآك المفتون فما يرى من كل وردة مطأطئة إلا رمز الحزن الأبدي ، ومن كل نسمة مشعشعة إلا كل هادرٍ نديّ ، ومن كل عرف من الطبيعة أعراف من الموت السخيّ ، فأنت أيها النرجس ًعند هؤلاء لست بالذي أجد ، ولو كنت على النار تُصلى ما كنت عندهم إلا بالهين من رماد ها ، وإن كنت على المطاحن يسري إليك الروع بين منزلة ومنزلة فلن يقيلوا العثرة إلا بقولهم : الخير فيه لو انتشل الميتة من قبرها ، ولو كنت على أحرّ من الحنين والشوق فسوف ترى فلسفة الشوق والحنين عندهم لن يصفوك إلا بالذي هان على الدنيا بفقدها فرغب عنها ، واستكان إلى الماضي بوهمه فاشتدّ نبذها ...

حسنا ترى إن قلت لي أن تلك الذكريات لهي أوراك الذي اشتد منه عودك ، وأنك في تلك الذكريات جمالها وبهاؤها ، وأنني منكما هذا المفتون بذكرياته المدفونة في حيث لا يعلم ، أو أنني مأخوذ الإنصاف بينكما حتى إذا ضنّ منك حذرهن فما عرفت ، وإذا اشتاقت منك وردة في عينيّ وردا يتشوّق، هذا منكما قد كنتُ فما أصبحت ؟! .. آه أيها النرجس لو تدري ما أصبحت منك بذكرياتك ، وما أصبحت ذكرياتك بك مني ..؟ وماذا تقول لي، إلا أن أقول لك : كذاك يا نبتة الجمال ، إن في ذكراك نرجس ، وفي ذلك النرجس ذكرى ، وما هذان إلا قدر القضاء وحكمه ألا يكون موضع الجمال من موضعه إلا في شيئين عسير على القلوب أن تراه فتصدقه ، وعسير على العقول أن تنظره فتعقله ، وعسير على العين أن يشفّها وهجه فتبكي له ... هذه الذكريات في النرجس وقلبه ، وفي القلب ونرجسه تقوم بهما معا وتزلّ بهما معا ، وما لأحد على الآخر فضل قيام أو رقود إلا أن الذكريات لتقيم شأن بعضها وتخفض شأن آخر ... ولن يستفيق ذا القلب إن هو غفى من الدهر في دهر يجيء معه إلا وله من ذلك النرجس أطيب ذكرى وأجمل ماضٍ يعيشه قبسا بقبس وحزنا بحزن وشقا بشوق ، ولهفة بلهفة ، وحتى إذا استقوى فلك الحياة وفلك الجمال وفلك الطبيعة ، كان ذلك القلب والنرجس مركزا الثقل في هذا الكون ، وكأنهما وكلّ شيء إنما يتخذ صوب هذا أو صوب ذاك، لأشواق وأحزان يميد لها القلب وتميد لها الذكريات !...

وإن تعرض أيها النرجس عن نفسك وتوءم تلك الذكريات فلن تنفذ منها إلى هذا القلب ، ولن ينفذ منكما القلب إلى جمالك وفتنته ، بل لن يقوى في نفسه على شيء مما كان به إذًا طرح أحد أسراره كأنه دوى لكلّ داء ، وعظيمة لكل ما يسمّى في منطق الرحمة عظيمة ... وشتّان إن أنت استخرت بقلبك أن يستجيز القلب بك ، حتى

إذا سلمت لك الآمال والأمنيات جعلت منها شوق وقد بلوته ، أبعد هذا أيها النرجس شوق وتلك حسرة ؟ ، وما لك وقد أراك لا تعثر في الشوق ولا كيف تتحسّر ، سلني ! سلْ هذا القلب كيف ، لعمري سترى الشوق يأتيك من محل ذكراك في قلبك ، وترى الحسرة حاسرة تخطو وإذا ما أصابت منك مصابا ارتعشت وانتفضت فكأنما انبثت منك أمواج النور غُرفة واحدة سامتها لك من معين تلك الذكريات ، ثم حضرت الحضرة التي لن تحيد عنك بعدها ولن تحيد بعدها منك ! إذا أنت استقامت لك الحسرات على ما بك ، ولربما سألت الحياة السؤال عنك فما يجيبها إلا تلك ، وإن ارتعت فهيهات إن كنت ممن لا يجهد إلا بالذي تتورّد منه الكائنات وتطيب الحياة ، فأيان أيها النرجس أصبت أو أخطأت ، أمّلت أو جاهدت ، أعفيت أو ساورت ، هذا القلب الجميل ينتظر الحياة فهو يسوق معها ولن يقوم إلا بها ، فلتكن الحياة التي تخرج معانيها من تحت أشفاره ، وتميل عليك أيها النرجس الآمال من فوق أسواره ، فتلك الذكريات وما لها من الحزن ، وأما أنت كالحزن وما له من الذكريات ..!

إن من القلوب التي إذا ظللك شعاع لهيبها وجدت منه معانيه التي ينقدح لك منها لهيب تراه تتمة لمعنى حرقتك ، وإن من القلوب من إذا هزّها نفح الرطيب رأيت لها جماحا كجماح النفس إلى المشتهى ترى مثله إلى ذلك الدفيء ، وإن منها قلوبا كأنما تصاغ من رميم الأرض ثم لا تكون بذلك الدم إلا حجرا صلدا لا ترى للمشاعر منه اندفاعا ، وتالله إن من القلوب لقلبي ... ناهيك به قلبا في طبعه الخفوت الدامع ، وفي جهاره الصوت الشجيّ القامع ، وتراه مهطعا إذا نزلت عليه نازلة الحياة ، ومتحاملا إذا حمِقَت أشكال الجمال في وجهه ، وحزينا كلّما رأى أثر الجمال لا يثقف لديه إلا أثر العذاب ، ألا أيها القلب قد ابتُليت بك ، وقد ابتُليت الحياة بنا ، فما هي إن عدّتنا من أسفار طبعها ولكن من أحجار رحمتها إن أنا عطلت فهل لا إلا ذلك العزاء سبيل؟، وإذا انسلت منك الأشواق مشتكى الدر من بين أزاهيرها في الذي طوقك أن تفعل ، إن أراك إلا غارما وإن أشفقت ، ومتألما بذاتك وإن آثرت ، ومتشوقا لذكراك وإن أنكرت ... حتام أيها القلب تريني الدنيا كبيرة على أملي أو صغيرة من حزنك ، ولكن لا ترني نفسك أبدا أكبر من الحياة أو جمالها أصغر منك ..! ولقد أشجاك الحزن أيتها القلوب واعتزمت لك سوءا ، فما بكى من الذكريات إلا تدبيرها له ، فيا قلب الغضا ما ذكرياتك إلا الضياء في ذلك النرجس تخترق منها جوامح الحنين وتطفح فتفيض فتغيض ، ويا قلب القلى ما أرى من بغضك حقا في الكائنات إلا اللمحة من الموت ، وحتى إذا انعقد الريب ولا جرم مُنعقد ، جئت ولا ريب من مجيئك ، سلّمت لك الخطام فأنت الحريّ بها وهي النازلة لك ، فارحم واعتبر بها فإنك إن ترى الأحزان والآلام جُعل لها من الجمال النصيب وخذ أنت بقيّته ، واقسم لها من الجود واحرم نفسك إلا من غضاضة الكرم ، فلربما ما كان من أحد بصر نوازل الرحمة في أرض تقيّة ، ولكن غرسة منها في أرض تبلغ نفسها أرضا من تعللك قد أطبقت على واحدة من قعر القلب ذاك ، وما القلب ذاك ..؟ ألا إنه المنشئ نفسه من بعضه ، فتتقمّح منك الحياة وترغب عنك ، ألا أيها القلب رفقا وساور الجمال للجمال ، ولا نصيب منه إذا أنت خيّرت فاخترت القليل

من العيش والزهد منه بذلك ، فقد خسرت إذا وُضعت ، وإن أجازك النرجس فلن تجد منه إلا شهادة الحنين الخدّاع ، والشوق المضلل ، ولن تزيد على ذلك لك من شيء ، ولا منك على غيرك فضل شيء ..!

القلوب تفتح بأقل عذاب من الجميل في ذاته على اعتبار غيره ، ولكن يلزمه عمر كامل لتعيش فيه ذكرياته التي سبقت ، وهيهات أن تستطيع له من ذلك نفاذا... والنبتة تلك وزهرته اليانعة عوامل الجمال ، ولكن ما أجدر الذكريات عليه و ما أذلّه لها !... عوان عندكم القلوب ، فما هو من سجن العذاب الجميل ، إلا إلى سجن ذكرياته وظلامه في جماله ...

أوقد صفت الحياة إلا من تلك الذكريات ؟! هاهي جميع الذكريات لتهم فلا تعلم لها من قرار ، ولا تستعلم عن مدار ، وهاهي قلوبها خاوية إلا من فتات الحياة قد اجتمعت منه أمانيها وآمالها و هذه الذاهبة على وجهها في الأرض ، ألا فاجعل من ذكرياتك مثلا من أمثال عزائها ، فإنما أنت أيها النرجس قوة البديع في هذه الطبيعة وقلوبها ، ثم في هذه الحياة وعقولها ، ومن ثم في الذكريات وعناصرها !.. وإن أنت آثرت عندك الذكرى تقذفها في هذه، كنت لهن كما يكون الضوء البعيد الخافت للداجي الذي أدانت له الأيام بهذا الظلام ، ثم لا يكون له إلا إحجام لذلك النور ، فلا يزال في طريقه يتعثر بالحجر والمدر وما علا أو سفُل ، وتجاز به الحياة على شرّه ، وتعلن له الخير بنصحه ، وإذا ما أتى إليه لم يجده إلا لمعة من ناب الموت، فهذا عنده ليل آخر ، فهن ظلامه بطعم النسيم ، بل هو ليحسب نورها ما يمدّ له بسبب إلا كما تمدّ المنيّة للوجل وقت قلبه إلى حين فتزيده موتا ، أو كما تطلب الحياة من الختم شدّ عقله إلى ظلال الموت وقلبه إلى مطارح العثار ، ثم هو و هي لا يأتيان على بعضهما ولا تأتي عليهما ولا بهما سنّة الكون ... فلم تحس هذه الأحلام لك، والعالم من حولك يلهف وما صغت الطبيعة للهفته ، ويا شدّ ما تجد من القلوب منها ، ويا عظيم ما تشد منك الذكريات إلى تلك الآفات والغوائل ، وأنت أيها النرجس طبيعة الحياة خلف الحياة وخلف الطبيعة ، وحزن القلب الذي يستند الحزن عليه إذا ما أراد أن يبث على القلوب بأوهامه ، أو هل فيك من شر جازته الحياة وحزنها والطبيعة وتقلّبها إلا ذلك الذي يخلص منها ثم لا يكون إلا مصدر أمن العجز فيه ، ولا تستطيع معه مدافعة ولا مكابرة ، كأنما استنفر الناظر من ضوء القمر حتى نقِعت عينه منه ، ثم لا تجد لقلبه سبيلا لذلك القمر فقد غارت السّبل جميعها بظلالها ووحشتها ، وما عاد له إلا بما دخل منه إليه ..! والقلب ينظر لذلك النرجس فما يحسبه إلا موضع النّبت في قفر الأرض بورقة منه ، ثم لا تنظر إلى جميع الأرض إلا من موضع تلك الورقة من فرع أصلها ..! ألا أيها القلب قد هفى بك الشوق حتى لتنظر لذلك إلى كل شيء على أنه ليس بشيء ، وترى في كل ما تصف وليس به وصفا بل شفقة ، ويرشف منك ما أنت معطيه بمنع ويعطيك ما هو مانعه بالجود ... الكلام يكبر ويصغر ، والحقيقة تظهر

وتُحتقر ، والواقع إلى تكذيب أو تصديق ، إذ القلب لا يدري أإلى مدرج الفناء يهوي ثم يفنى ، أم إلى مسلك الذكرى يجنح ثم ينسى ! ...

ما يشتكي الحيّ من أحياء الموت إلا ذكريات غرغرته وسكراته وهو ينازع أرواح الحياة التي تريد أن تخطفه من موته ، وما أشقاه بعمره إذا كان مما يبعث المهين من المهيل ، ما يبعث من الحياة ببعضٍ قد اجتمعت له الأيام بردح من الشوق، ثم باقٍ من زمن الرّوح ، ثم لآخر مما يَدرس على آثار الجسد رمزا رمزا ، ثم بآخر مما ينشر المطويّ أو يطوي المنشور ، وإذا بها قد اكتملت تلك الذكريات التي طالما يكون المرء منها متوسّما لنفسه عليها ، فما كان إلا قلبا أتى بقلب ، ثم القلوب تأتي بهذا الذي يتذكر ، وقد بات في روعه أن الله قد خلق الأمم واحدة بعد واحدة ، وأتى بمادتها فردا من بعد فرد ، وجاء بمعانيهم نفسا من بعد نفس ، حتى انتهى لهذا القلب بهذه الذكرى معنى من نفسه فلا ترى إلا أن ظلمات الحياة والقبر والفضاء ، هي حواشي ظلمات القلب وحزنه وألمه ، ثم المرء بين هذه وتلك قانون من قوانين العذاب على نفسه بقلبه ، وعلى غير بشوقه ، وعليهما بذكرياته..

لا تحزن أيها النرجس ! فإن الحزن لمثلك سعادة وأنت لمثل الحزن نعيم ، وما السعادة من هذين إلا مقدّمة الهم وحزنه ، ثم مقتبل الذكريات والذكرى ..! وماذا تقول الحياة إن رأت هذه النبتة وحالها حالها ، لا تزيدك إن أنت قد تمَّ في نفسك بذكرياتك كل ناقص إلا كمالا ثم يبدأ لك بتاريخ ذكراه من بدء حنينه لا من شرارة زفرتك ، أتراها كانت تقول : ربّاه ! ما لهذا النرجس قد أعدمت وروده حتى أضحين لا يبدو منهن شيئا للذي ينفذ ببصيرته الكذب ، ويجزيه ثم يُعدمه كأظلم نقطة من القبر في مختتم كلمة الذكريات ! وحسبها أن يكتفي منك بزهورك، فإنما أنبتت بهن وهن بالجمال ، ومن بعد الجمال مغبّة ذلك ! .. ألست إلا أنت ؟ فارحم بنفسك على بعضك ، يرحمْ بعضك على بقيّة نفسك ... وماذا كان من عقلك مع هذه الذكرى الجزلة التي اقتحمت عليك ثم أخذتك تهوي بك من سماء إلى سماء أو قل واحدة تدير الأخرى ولا شيء سوى أنه لا يحسن التصرف ولا يتقى مدرج الحديث بينا هو قد جهِدَ لك به ، وماذا من ذلك القلب إن هو أراد الهلاك؟ ليس سوى أن يريه ضربة المنيّة بعد موته ، أو خطوط رمسه وهي تمتد من غور الأرض إلى سطحها ، ومن سطحها إلى جناب قلبه أو يخار لك في طريقة الموت على هوى النفس المحبوبة ، وماذا يكون من هلاك القلوب إلى الذكرى ودموعها ومعاني كلّ تلك ، حتى ليس في كلّ معنى إلا يرسل في روع ذلك القلب وينفث ويلفظ ، فما يدري ذلك الناسي والباكي من تأتي به أمواج الموت ، أمنْ نفسه أم من دموعه أم من بعض ذكرياته ، ولا شيء إلا وكزة الحياة ثم رقدة الموت... !

قد يرى الناس في بعض ما نبت من النرجس شيئا ثمينا ، ويحرر وافيا من عروتهم وألفت نفوسهم بعد زرعه لا ثمينا ولا من شيء ، وكأيّن إذا أتى لك الزمان بشيء منه أن تراه ثمينا ، ولكن إذا أعطيت شيئا له لا تراه إلا أندر ما يكون ، ويعمل

عمل الفلسفة فتصبح زاريا عاتبا شاكيا ، وما في نفسك إلا أنك بعض منه ، فإن أنت اعتبرته ما وجدته إلا ويجمع عليك شتاتك المبعثر ، وإن رأيته فلن تراه إلى شتاتك يجتمع لك ثم يجري مجراه منك ..! ثم يأخذك بقلبك ولست بآخذه ، ويحرمك نفسك ولست بحارمه ، ويعجب منك وأنت في عجب من نفسك ، ألا ياذا النباهة لست تفطن فإن عقل الزمان قد أخذ من ذكرى أيامه بعضا فطرحها لك ، وما هو بواهن على أن يقصمك بالحرف والنقطة وكل شيء مما يُسمّى لغة ، فما أنت بعدها إلا سجين الحروف وألفافها ، وإذا هو الكاتب بالقلب عليك الشقاء أو النعيم ، وتعيش حرا بهذا السجن ، أو مسجونا بالذي تزعم حرية ... لك الأمر ولكن لي تصريفه ، وهلمّ لو أراد كل امرئ أن يمحق أثره بذلك لكان الخطأ من ذلك الأثر الذي أجزى تلك الزلة في نفسه ، ولقد كان وما يكون فيها ، وأصبح وما يُصبح إلا بعضا منها ، بل هو هي في كل شيء باطّرادك أجريت عليه القياس مما سما أو هوى ، فلن تجد إلا ما وصفت ..!

حنانيك أيتها الحياة والطبيعة ، ماذا يكون من هذا إن غفل به مغفل الذكرى واحتسب له الأمر وما هو فوق ذلك ، ولا ينقلك على ذلك مما هو فوقه ، فإن الرجفة إذا أصابت نبتت من بعض خروقه الثمار والأوراق ، وإذا أصابت الثمار والأوراق فلت تدركها إلا هشيما تزفر له الأرض بالريح من هاهنا وهاهنا ... وما هذا القلب ؟ وما تلك الذكرى ؟ فما استحى القلب يريد من الذكرى وهل النسيان من معاني الحياة ، وللمعاني حياة ، فما تلقى في وجهه أي جميل إلا أفلتَ من نفسه كل قبيح ، وما أراك قط دمعة من دموع العيون إلا أراك دمعة منه هو ، وحسبك بها وقد أتتك من جميع جوانبك ثم أرسلت في حِجاك المستتر كلّ شيء ظاهر ، واسترسلت من كل شيء ظاهر ما تستره ، فلم تبق إلا الذكرى تُجادل إظهارها من نفسي ...

إن من ذكريات النرجس ذلك القمر الذي كأنه في وجه السماء الظاهر وجهها الباطن وهي من حوله دارته ، وهذه النبتة هي عينا رأسه اللتان رجفت لهما القلوب واهتزت فما منها إلا للقمر ، وما كان للقمر فإنه لها ... وإذا بها لا تدري أكانت أم لن تكون في حسابها على ذلك القمر ، وترى به من الجمال والطبيعة والصنف من نوره ونَور النرجس ، أفكان لتلك النبتة بهذه الأحياء وترى إلى كل واحد كأنه يسكنها من نسيج أبويها ، ثم تكون نسيج وحدها لا تغزل إلا بمغزل من الذكرى بطرف من الحنين وخيط من الحزن ، ثم تجيلها على كل رقع هذا القلب ، بل على شيء عند أهله محبوبا وعند غيرهم مبغوضا ، فإن المرء لا يرى من نفسه إذا ما استبدّ به طبعها إلا الزيف وهي لا ترى إذا ما استساقت في ثمنه وريدا إلا قرع خطو السن ثم إلى أين ؟ إلى الذكرى والذكريات ... والربيع أين منّا ذلك الربيع ؟ قد ذهب لما ارتأت الأرض والحياة عليهما بكل شيء إلا من معانيه المورقة ، وما اختفى من ذلك الربيع إلا ما ظهر وما ترى إن رأيت إلا معانيه فضلا عن أن تدركها...!

قد اقتبل الفجر واشتعلت مراجل النور واغتفى الظلام ، وهذه السماء توارى ثم تُظهر ، والأرض تظهر ثم توارى ، والقمر دليل للشمس من نوره ، والشمس أرها

من بعض ظلال القمر وعتمته ... و هذه النبتة قد اعتمت واستوت ، فما كان في استوائها إلا مضاضة العيش إلى إيغال القلوب منها ثم انتهت وما انتهت ، وكذلك القلوب قد احتذّت وما تحتذّ إلا بالهيّن ، وما لهينها إلا العظيم من ذكراها ..

وما الألم إلا أرض ذلك الربيع ، فبكل نسمة أثر من الحزن وبكلّ جدول سيل من الحنين ، وفي كل سبيل خيط إلى الذكرى .. وما الحزن إلا ذلك الجمال ، وما الحنين والشوق إلا نور القمر ونور الشمس ...

وإن البرق إذا اتصلت أسباب السماء بأسباب الأرض عن شرارته ما يُثبت من تاريخه إلا ما يُثبت السوط على ظهر الصريع ، حتى تعرف من الجروح ودمائها حياة ذلك السوط وحدّته ، وما كذلك ما تعرف من البرق إلا حدّته على ظهر الأرض ، ثم في نفوس الناس وقلوبهم ، ثم للتاريخ ذاك أن يحدثك عنه كلمة كلمة من مبدئه إلى منتهاه ... والذكريات لتثبت تاريخا في كل قلب مما ينبعث من الحزن، فإذا استخرت فيه الآمال والأشواق ، غدت الذكريات مُلهية كل قلب عن حقيقتها شاغلة باله إلى صورها ، وما يعود من وراء ذلك القلب ...؟!

الفصل الأخير

إن في هذه الفصول روحا من ملكوت الله وعجيب قدرته ينفخ بها على عباده المحزونين فما أحدهم معها إلا أسعدهم حزنا ! وما تكاثرتُ في ذكر الجميل منها وما قننت ، ولكن سار هذا السيف يضرب على هذا القلب فكان معه قلبا فيه من معاني السيف لا يدع في يد المحزون شيئا من الأمل .! إذ هو برمّته أمل لذلك القلب !.. وما من ذلك القلب إلا هذه الذكريات نورها وسناها ، وهو في حزنه وألمه . ولقد تعددتّ في إيضاح مكنون هذا القلب فكان المكنون منه شيء ، ومن ذلك الإيضاح شيء ، فإن مازجت أحدهما بصاحبه خرجت لك الآمال بشروحها ، ولن تجد على عنوان كتابها غير الكلام الذي تجده في ألم دموعك ..!

صف لي أيها القمر بمعضلة من نورك تلك الذكريات فقد والله نفذت من القلب إلى نورك ، وهامت من ألم فيها إلى بهاء فيك ، فإن عندك يا قمر السماء لسانا مبينا يعرفه أهل الذكريات لأنك بعض منها ، فيا رحمة لك ولذكراك ، ستكون كالمنارة التي ترسو في خليقة السفن على الشاطئ ، ولكنها لا تسير إلا إذا سارت أخواتها ، ولا تضيء الطريق إلا بتلك الذكريات من بينك وبين نجومك أيها القمر ...! وإن فيك يا هديل الحمام صوتا من مثل أصوات القلب تلك ، فارع في حقّي وزد لي فإن صوتك والذكريات كما بين العقل والقلب لهما في الطباع وليس لهما في النوازع ...

ما كان لهذا الناسي أن يتذكر رمز عقله وقلبه في فكره وألمه ، إلا عين دامعة فيا بشرك قلب وعقل بتلك الدموع ، ويا بشري بهذه الذكريات ..! في كل شيء يُلقى على الإنسان كالنحلة على الأنبياء ، في مثل من الإلهام إلا من تلك الذكريات ، فإنها مهما بثّت في القلوب وهوّدتها فإنها أبدا فيها كما أنت قد كنت فيها ، ولكن لا تراها بعين دون عين ، ولكن انظرها بعين فيها حسّ التدبير وارو ها بأخرى فيها حسن التعبير ..!

ما كنت يا دمعة في تلك الذكريات همّا ، ولكنك ذكرى من مثار الهم والذكرى ، فلا تترخصي في شيء ما فتترخصي في شيء من أصلابك على هذه الجذور فما أنت بعد دمعا ..لعمري إن كنت إلا قلبا يذرف وآخر يبكي ، وليس لهما من تلك الذكرى إلا ما لهذا العقل من تنوير على نفسه فقط ، فلن تكوني أبدا في حاسّة من حواسّ البشرية اهتياجا ، ولكن مؤشر من مؤشرات الإنسانية جمالا ! ..

ما رويت في هذه الدموع كلاما من بعض كلام الناس ، ولكنني في عالم يتحرّى، وشيخ يتوارى بكلّ سنة في نفسه إلى حزن وندب عليه ، بل إنه منطق فيه الذوق والحسّ والشعور من كفّ ، وفيه الشوق والحنين والألم من كفّ أخرى ، ثم إياك أن تصفقهما فإنك تنتزع من نفسي ألما فيه حنين إلى حنين كلّه ألم ، وتستقطر من جنباته شعورا فيه ذوق ، فإنه ذوق كمعنى تثقفه بمرأى من القلب ، ولكن هيهات ذلك

يطيب بمرأى القلوب ، وفي كل ذلك يخرج حزن من الذكريات فتغدو ذكريات حزينة فهذا كلّ همي ، بل كلّ أملي ..! إلا تنظري أيتها الذكريات إلى قلب من طرف ثم تهملي كله ، وتقيسين على بعضه شعوره وما يهتاجه وما يحنّ إليه ، فإنه من ذلك يستطير شرّه كما في ذلك الدّم .. ولربما انتشل من حظوة الأيام يوما واحدا فيأتي عليه بجميع جوانبه فتلك مظانة القلوب بلقاء الذكريات ، ومظانة الذكريات بلمسها حياتها واستشعار القرارة فيها ..! القلب والحزن والشوق مع الحنين ، كلها لطيف الذكريات تمور حينا وترسو عليها حينا ، وما من يد أقصد إليها من يد القلب ، فإن السّرى والعروج بين أفلاكها لمهارته في تخطيها و عداد أيامها ثم حفظها هناك ، أي في القلب مع تلك الدموع ..!

لن تعرف الأيام مني رجلا فيه النهارة والفتوة ، كذاك لن تعرفني ضعيفا فيه كل علم جهل وكل جمال قبح ، ولن ترني يوما إلا إنسانا بقلب بذكريات في صدر ذلك اليوم يخفق قلبي على قلبه و ترتعش روحي برعشة روحه ، وتجئك الذكريات في ساعة واحدة من أربع وعشرين دهرا أفذاك حساب الجاهل ؟ وما حساب الجاهل إلا في بوار، ولكن ما تجدي عليّ ساعة بل لن يجدي عليّ دهر ، فحسبي هذا القلب المزوّر بمعاني الألم والحزن والشوق ، فتلك صور الذكريات في هم وأدمع وحنين ..! ولقد يكون في مثل الألم شعر يستنفذ عليه جميع قلبه ويغلو به في مهوى سحيق لا ترى له بعد فما من دمع ولا ألم ، ولقد يكون في شيء من عبرة تلقى على عقل ثم ذكرى على قلب ثم دمعة على عين فها هي ذي حواجز النفس البشرية إن أردت خرقا لها ، وانفذ بألم من حزن أو بقصيدة من بعضه فما يكون لك امرؤ طوع قلبك ، إن شئت مسخت عليه ضُنّته ، أو عدمت منه شوقا ، أو قطعت في وريد الذكريات فذاك أعظم الانتقام في محاكم القلوب ..!

إن في رحمة الله على عبد تتدفق الحياة من بين أشواقه لطمس ثم موت فحياة ، وإن من رحمته على نفس ما فيها أكثر مما في القلوب سعادة ، فهي بعد لسان الشكاة التي تجيئك بكلام الألم ، وعين الحزن التي تأتيك بدمع السعادة ، أو قلب الدهر الذي يخفق فيه ذكرى ..! وما جعلت في نفسي من موضع من قلب امرئ آخر ، فإني لأحفظ العهد الذي اختطته اليد العليا وجعلته بين القلوب ميثاقا فلن أحنث . على حين ما تريد إلا حدا من حدود القصاص من هذا القلب كي تنفيه بذكريات إلى قضيب من قضبان الموت فإذا هو في قبر من نار ، يجري عليه من جهاته الألم والحزن وتجري الذكريات ، فيتطوّق بطعم الحميم فلا يتركها ، فما هي إلا حميم من بعض هذه النار . فما به إلا شكل القلب مع حزنه ، أو المجلود مع سوطه ، أو المحكوم مع سيفه ، أفأنت يا قلبا تدور بشيء على شيء ثم لا تريد إلا ذكرى ، إنك لن تنالها إلا بألم من شوق وحنين ، ثم حزن من جميعها إلى جميعه ..!

أفيتعلم المحبون من بعضهم قبلا ومعانقات ، فإني أتعلم من هذه الذكرى شعورا وحنينا ، ويدرسون في بعضهم فعلهم كذا في يوم كذا من ساعة كذا ، فإني في مدرسة

من معلم اليوم ومعلم الساعة ، آه لقد خسروا إن لم يطعموا من ذكرياتهم صفاء ومحبة فما منهم إلا الزهو في الدنيا ، والرغبة بآلامها الجميلة ، أيّ ألم تلك الذكريات ؟!..

ماذا يكون في شعر الشاعر ولغة الكاتب من جمال إذا ما ارتاض هو بنظمه ذكريات واختار ذاك ببيانه شوقا وحنينا ، وما من ذلك الشاعر إلا نقطة الألم من بحر السعادة كله ، وما هو إلا وتر الحزن إذا نقرت عليه يد الطبيعة راح يشكو بهم ويغلو بحزن عميق ، فإن خلاصة الإنسانية قد طبقت في قلوبهم ومدامع ذكرياتهم قد أحكمت في دمعته من لحن يستجري عليه بهطل من الدموع ، وإني لأرى فيهم موضع رحمة الله بين عباده ، فمتى عرفت طبيعة من طبائع الشعراء فاعرف من صاحبه قلبا زكيا أو دمعة مترقرقة أو ذكرى جميلة ... وفي سحر الكاتب وروعته في حديثه للقلب من هذا القلم وحديثه للقلم من هذه الدمعة ، وحديثه للدمعة من هذه الذكرى ..!

وماذا تجد من ذلك العالم الذي استودع عقله في نظرية كونية فإن أصابت فقد عاش بحياة عقله ، وإن أخطأت نفي على نفسه في عقله أن يكون إنسانا ولا ملحقا بهم ، فلربما عدّ نفسه في ركب الحيوان من ذوات القوائم التي تعدو فتكبو ، وجلّ همها فضلة الحياة التي تجود عليها الطبيعة بها .. وماذا يكون في قلب استودع مشاعره عطفة منه على شيء مال إليه ، فإنه إن وجد إقبالا ازداد في شعوره بشيء من السعادة ، وإن ألفى إعراضا فهي نكبته لن ينجو منها بأقل من حزن بذكرى ..! أو ذكرى جعلها سُبة الدهر وزراية عمره ! بل ماذا يكون في اصطبار المصطبر إذا حنّ للذكريات التي اشتاق إليها في فصولها ، فإن لم تجد قلبا يخفق لخفقها أو يشتكي لشكاتها أو يسعد لسعدها، فإنها إذا أوراق كبعض ما ترى من التي تهب لها رياح النسيم فإنها عند قلبها عاطفة وعند عقلها موت بشوق وحنين وألم ! ..

يومان من عمر الإنسان فيهما شمس إذا كانت ذات وجه ينبي عن وجه كوكب ذي أذرع تطول قرن المجرة ، وفيه قمر إذا كان يخفي عن وجه متورّد له من أنواع الفتك والتنكيل ما له ، عجب عجاب ..! في مثل هذان اليومان يكون فيهما الإنسان إنسانا .. خذ ما شئت من الدموع واعطني ما أشاء من الذكريات ، وانزع عليك مسوحا مما ارتخت به مباهج الحياة وائذن لي برقع من أشواق على هذا الثوب المفتّق ، وأجز لك بما شئت من عقول وأفكار لي بما فيها حياتك ، واجعل لنا من بعدها منك مرثية فيها ماض وذكرى ، وحنين وشوق ..!

فلترسل الأشواق أو فلتحبسها ، فإنك ناذر على نفسك عذابا متى تريد كمالا فلا أنت تريده عذابا ولا أنا ! .. وأحص بما استعطت من نبض تلك الزفرات الواهية المكلومة بدم أعسر عليه أن تشم فيه رائحة الدم .. ولكن أيها القلب إنا في هذه الذكرى شيء ليس كل شيء ..! بل شيء من بعضه أي شيء !

أراك أيها القلب بعد كل هذا الوصف للذكريات ما زلت في فهم من الذكريات سقيم ، وكلما زدتك من جمالها زدتني من نكرانك ، وكلما ألمحتك منها طرفا ألمحتني عنها عجزا ، فيا قلبا كنت ذكرى لا تشتكي من ذكريات القلوب فإن إن لم تكن فيها فلست بخارج عنها ..!

من لي بشيء يستغث بذا القلب بيسير من الذكريات حتى تكون بعضا منه ؟ حنانيك أيها القلب بتلك الذكريات فيا ليتها من شيء أنت فيه وهي في شكل أنت تريده ، إذا لكان كل هم على القلب هم للزمان وعلى الزمان ، وما رأينا من نكبة في أمة إلا ورأينا أمة ذكريات نُسيت .. ولا في شيء يكون إلا من صبابة الموت يرتشف منها المحزون كل ساعة بسقاء الذكريات .. أمن زفرة المحب وقلبه يرمي على ما هو إليه مشتاق ، كان هذا القلب لتلك الذكريات كأنما شيء يعطيه فيأبى ، ويسخى عليه فيرفض ، ويتعلل بشيء من المكر علة يسقط معها الزمان وأهله ، أو أن يتذكر يوما واحدا مضى عليه الدهر ، فإنما الدهر دهر في وقعته ما دام للقلب بعد من ذلك الحزن أو شيئا مما يسمى حزنا ..!

أنى ينصرف القلب عن شيء تجده أشد ما يشتاق إذا اشتاق إليه ، وما يريد عن كبرياء أن تحط منزلته في عين القمر فيخبو النور وتدنو أشعته ، فيؤثر من شيء كان يحبه إلى شيء ما زال في حب له حبا يقوده إلى الكره ، وليس أجدر على ذلك القلب إذا أراد شوقا وحنينا إلا أن يفيق على نفسه بذكرى أو ساعة أو لمحة من الماضي ، فإذا هو أبقى مما كان يريد ، بل أبهى شيء هو إليه مشتاق ..!

لن تكوني يا ذكريات القلب إلا عمرا آخرا ، بل قلبا ثانيا ، بل دمعة مترقرقة ، وفي كل تلك شمس من الأحلام عابرة تجتاح الفؤاد في غمرة النشوة الزمانية ثم تنساه في أكدر صحوات العقل الإنساني ، وما من عقل مع تلك الذكريات السعيدة إلا عقل له كالعجلة في النقل ، همها الدوران واجتياز نفسها عن نفسها ثم بعد هي قد اشتدت بأوصالها الآلام فما تكون بعد إلا راحة للذي يحمل عليها متاعه ، ويل له أينساها أو ينسى عقله بقلبه ، فلينس فيه بعقل ذكرياته فذاك هو سؤاله ، بل تلك هي أحلامه ..!

إذا قالت لك الذكريات يوما بلسان العاتب الجميل فلا تصفح لنفسك بعذر ، فإنك لست على أمر كانت الذكريات تريده منك ! .. سلْ كل العقول واحدا واحدا ماذا أجدى عليهم في علم الفلك أو مزاوجة الأرقام ، بل ماذا نفعهم عقلهم لما كانت تسيل على المناظرة والمكابرة سيلا عرما ، وما يجدون من قلوبهم إلى قلوب غيرهم سبيلا .. بل ما يجدون منها نفعا لأنفسهم من بكرة الذكريات تطأ أعناقهم وتحذف لهم بكل يوم مشؤوم ..! لن تعرف أين هم من نفسك لأنهم لا يعرفون أين أنفسهم منك ، وتجد على جزارة عقولهم نثرا من الغباء على تمحيص الذرة من الذرة ، أو باشتقاق الخلية عن أختها !..بل إنّ في قلب كل واحد ذرة وخلية وما تحتاج لتمحيص ، ولكن ما يكون إليها من سبيل إلا بذكرى فتجترئ على الأيام لها فسقيا لعامك بعقلك ، بل يا سعدك

بذكراك لقلبك ..! إن ضعفا لعقلك في جنب قلبك قوة ، وهمود من علم الذرة إلى علم الذكرى مغنمة ، وفي كل مثل على هذا يجيء لك العقل حاسرا على القلب ، ويأتي القلب ذائدا عن ذا العقل وجنونه بشيء من نشوته فما هو إلا نسيان الهم ، ومزاولة علم السعادة في الحزن والذكرى للحياة ..!

ما في نفس إنسان أن لو أراد الجمال أن يحسب كل جميل بمنظور آخر قبيحا ، لأن في النفس خطأ في التعليل والرأي ، بل إن الجميل يرى في كل شيئ أمامه له من الجمال معنى ، ولربما كلمة ولربما دمعة ، فإذا هو معه كجنة للقلب من تلك النار للمشاعر..!

لو أنني سُئلت عن هذه الذكريات شيئا لما كان جوابي بالذي تسمعه فتحسب فيه سحرا ، أو الذي تراه فتخال فيه حسنا ، أو تعقله فتجد منه فكرا .. بل إنني أقول: ما كان أطيب الذكريات في القلب معها ، فإنها حياة له إن كان مقدر للعمر أن ينتهي بساعة ..

وسأحملك أيها القلب رغما عني .. لأجل تلك الذكريات ..!

۞۞۞۞

يا وطــأة الذكرى الهويـن

فالجـرح في القلب انتظــمْ

والقلب محـــراب دنـــا

فـــادعوا هنـالك واستقــمْ



الفهرس